سلسلة الآثار الكاملة ـ ٢٣ـ

محمد(ص) خاتم النبيين

من الهجرة حتى الوفاء

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة
ابو علي الموسوي

تقديم
الدكتور إبراهيم دسوقي شتا

دار الأمير

محمد(ص) خاتم النبيين

من الهجـــرة حتـــى الــوفـــــاء

بسم الله الرحمن الرحيم

إسم الكتـاب : محمد(ص) خاتم النبيين

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : ابو علي الموسوي

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-02-9

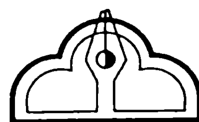
الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ: 07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . .، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

خمسةٌ وعشرون عاماً مرّت على استشهاد علي شريعتي. . .

ربع قرن وقبله ما يساويه، . . نصف قرن، . . ولم ينته الصراع بعد. . لا أُريد أن أُعرّف بالرجل؛ ولكن هناك أمور يجب التركيز عليها. .

حُلمان. .

حلمٌ طالما راود الشاه وقد كفاه «السافاك»[١] تحقيقه عام ١٩٧٧م، فبعد وصوله لندن بشهر واحد تحقق حلمٌ كبيرٌ من أحلامه الشيطانية. . «قُتل المُعلّم»[٢].

الحلم الثاني للطاغية لم يتحقق: **«سيظل هؤلاء الجلادون**

---

(١) السافاك: جهاز الإستخبارات الإيراني زمن الشاه، وكان من أخطر وأبشع الأجهزة القمعية على مستوى العالم.

(٢) هذا اللقب رافق الدكتور شريعتي من بدايات الثورة أواسط الستينات حيث كان يُدرّس في جامعة مشهد، ثم في جامعة طهران، وبعد تأسيس حسينية إرشاد عام ١٩٦٩م، تأصل هذا اللقب للدكتور شريعتي وظل مرافقاً له حتى استشهاده؛ وإلى يومنا هذا ما زال يُعبّر عنه بين مريديه باسم «المُعلّم».

يتحسرون على سماع كلمة آه مني»[١] . . . مات الطاغية وازداد المُعلّم في موته حياة وكل يوم يمر؛ تضاعف ذكره وفكره الأيام **«والمبدعون مناياهم تضاعفهم فكلما قلَّ من أعمارهم كثروا»**[٢].

بهذا الإصرار ـ البصيرة ـ كان يخاطب شريعتي الملايين من جيل الشباب ـ «جيل الثورة» ـ وبهذه الروح الشفافة كان يطلق آراءه: الوعي ـ العودة إلى الذات ـ النقد التاريخي ـ رفض الموروث القائم على الخرافات والتستطيح للإسلام والعقول ـ الكفاح من اجل فلاح الإنسان ومقاومة «اغواء» الرأسمالية من جانب و«اغراء» الماركسية من جانب آخر، والانتقال بجيل الشباب إلى النبع الصافي للإسلام الأصيل، بهذا كله كان يخاطب شريعتي طلابه وجمهوره واستطاع إلى جانب الشهيد مطهري والشهيد بهشتي وغيرهم، أن يؤصل هذا الفكر النيّر في عقول ونفوس الشباب، وكيف لا، وهم جيل الثورة وعصبها. . جيل الغد الذي طالما عمل شريعتي أن يكون ناهضاً ومشرقاً. .

ولكن ما ميّز شريعتي عن سواه، هو الإلتفاف الهائل من جيل الشباب حول محاضراته وندواته؛ حيث كان يعتبره الجميع بشكل أو بآخر «مُعلّم الثورة»، ومنهم الكثير، اليوم بالذات، من يشغل مناصب ومراكز مرموقة في إيران ممن يعتبرون شريعتي أستاذهم ولو بمرحلة من مراحل حياتهم، وحتى الذين حاربوه من أصحاب

---

(١) هذه الكلمة أطلقها شريعتي من سجنه بعد إغلاق حسينية إرشاد.

(٢) من قصيدة للسيد محمد حسن الأمين في رثاء الشاعر محمد مهدي الجواهري، مجلة القصب ـ العدد ١١ ـ السنة الثالثة ـ ص ٢١..

العقول المتحجّرة عن قصد أو غير قصد، فإن من الصعوبة بمكان أن ينكروا فضله على هذا الجيل في تلك المرحلة، حتى حين كان جهاز «السافاك» وأعوانه يلجأون إلى تزوير بعض كتبه وتحريفها (بهدف إثارة رجال الدين ضده)، كانوا يطبعون من مليون إلى ثلاثة ملايين نسخة من كل كتاب لتوزيعه مجاناً، وهذا يدل على مدى انتشار آرائه وأفكاره آنذاك.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن بعض أعمال شريعتي تُرجمت في مراحل الثورة المختلفة إلى أكثر من عشر لغات حيّة، وعلى هذا، وانطلاقاً مما تقدم، أخذت **دار الأمير** على عاتقها تعريب تراث هذا المُفكّر المسؤول ضمن مشروع «الآثار الكاملة» والتي تصل إلى أكثر من ستين عملاً فكرياً، لما تراه من حاجة ماسة تلبيها هذه الأعمال، والتي بعضها بحاجة إلى تدقيق واعادة نظر، فهي ليست كتاباً منزلاً، وهذا ما كان شريعتي يقوله عن نفسه وكتبه. ولكنهم بدل أن يحاوروه خوّنوه، حتى وصل بهم الأمر إلى اتهامه بالانحراف، فدائماً (ومن شديد أسف)، التهم جاهزة، خاصة عند اصطدام المصالح، ولو كانت على حساب الدين والعلم، وهنا لا بدَّ لي؛ ومن باب الأمانة العلمية، أن أشير إلى أن بعض هذه الأعمال هي أصلاً محاضرات مسجلة على «كاسيت» وقد قام الأخوة المترجمون بتفريغها وتنسيقها موضوعياً، ولا يخفى على متتبع أن التأليف شيء والمحاضرة والخطابة شيء آخر، فيرجى أخذ الأمور على محاملها الحسنة، فشريعتي لم تسعفه الحياة لإعادة النظر في الكثير من أعماله، فقد استشهد ولم يبلغ الستة والأربعين من العمر، وهناك سنوات قضاها

قابعاً في غياهب السجون، وهو نفسه كان قد صرّح أمام الكثير من العلماء والمفكرين، ومنهم ما زال على قيد الحياة أمثال **المؤرخ السيد حسن الأمين**[١] أطال الله بعمره، صرّح أمامه أن هناك بعض الأمور التي جاءت في بعض كتبه ومحاضراته خاصة التاريخية والعقائدية بحاجة إلى إعادة نظر وتدقيق، وانه سيقوم بذلك، ولكن الموت كان أسرع، وعندما كان الشهيد في أواخر أيامه وقد احسّ بدنو أجله خاصة في الرسالة الأخيرة التي أرسلها لنجله والموجود جزء منها في هذا الكتاب، كان قد طلب من بعض أقرانه ومنهم الشهيد مطهري؛ ومنهم من هو على قيد الحياة اليوم، أن يقوموا بتصويب هذه الأمور، خاصة المجموعة في كتب وهي في الأساس كانت مجموعة محاضرات، فالبعض حصل والبعض حتى الآن لم يحصل. لهذا نستميح القارىء عذراً إذا وقع بعض ما تقدم، فنحن في مشروع طويل وشاق، وإننا في **دار الأمير** على أتم الإستعداد لنشر أي رد أو نقد، وفي موقعه من النشر، في طبعات أخرى أو حتى مستقلة، شرط أن يكون مبنياً على أساس علمي سليم، نسأل المولى العزيز التوفيق، والقارىء الكريم العذر عن أي تقصير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد حسين بزي

بيروت في ١٠/١٠/٢٠٠١م

---

(١) السيد حسن محسن الأمين مؤرخ جليل، وهو نجل الإمام السيد محسن الأمين العاملي «صاحب الأعيان»، للسيد حسن عشرات المؤلفات منها دائرة المعارف الإسلامية الشيعية وموسوعة مستدركات أعيان الشيعة.

قالوا في شريعتي

الإمام آية الله السيّد علي الخامنئي[(١)]

أودّ هُنا أن أنقل لكم خاطرة جرت عام ١٣٤٧ هـ ش (١٩٦٩م) أي في السنة الأخيرة من عمر جلال آل أحمد، حيث جاء المرحوم آل أحمد إلى مشهد، فجمعتنا وإيّاه جلسة مشتركة كان من حاضريها بالإضافة إلى آل أحمد المرحوم شريعتي وعدد من الأصدقاء. حين وصل الحديث إلى علماء الدين، وكان يعبّر عنهم يومذاك بالحوزة العلمية، التفت المرحوم آل أحمد إلى شريعتي متسائلاً لماذا تنتقد الحوزة العلمية بكثرة ولا تنتقد مثقفينا... هلمّ وانتقد مثقفينا أيضاً!

«أجاب المرحوم الدكتور شريعتي بجواب يمكن أن نتلمّس من خلاله حقيقة موقفه في التمييز بين «الروحانيين» كموقع وحالة، و«الروحانيين: علماء الدين» كأشخاص، قال: **ان سبب تأكيدي في نقد الحوزة العلمية، يعود إلى أننا ننتظر الكثير منها، بينما لا ننتظر شيئاً من نخب مثقفة ولدت في أحضان الثقافة الغربية. الحوزة**

---

(١) الولي الفقيه وقائد الجمهورية الإسلامية في إيران، وكان في أيام الثورة على صلة وثيقة بالدكتور شريعتي.

العلمية قاعدة أصيلة نأمل منها أن تقدم الكثير، وحين تتخلّف عن العطاء في مقام العمل فإننا نمارس النقد».

استطيع القول أن شريعتي يمثل مرحلة، ولكن بهذا المعنى: لقد استطاع أن يطرح أفكاراً في المجتمع من خلال لغة واضحة وأن يبينها لذلك الجيل من خلال هيمنة خاصة على الثقافة السائدة بين أفراد ذلك الجيل.

وهذا لا يعني مطلقاً أن شريعتي لا يملك ابداعاً معيناً، وإنما كان له الكثير من الإبداع في المسائل الجديدة وهذا هو المعنى ـ الذي أعنيه ـ بأن شريعتي يمثل مرحلة مضت.

المرحلة التالية ـ لشريعتي ـ هي أن نأتي للقضايا التي طرحها انطلاقاً من فهمه للثقافة الإسلامية، ونعيد تأسيسها ومطابقتها في إطار أصول الرؤية الفلسفية (الكونية) للإسلام.

إن عملية إعادة البناء هذه ستتمخض في نظري عن مرحلة جديدة تكون مفيدة لجيلنا الحاضر وبتعبير آخر، إن ما نحتاج إليه هو أن نقرأ شريعتي إلى جوار مطهري.

فما ينتج من الجمع بين جمال (البيان) لشريعتي ومتانة الفكر الإسلامي وإحكامه لمطهري، هو بالضبط المرحلة الجديدة التي يحتاج إليها جيلنا الحالي.

إن الإطار التأسيسي الذي يجعل الدكتور شريعتي في إطار الروّاد الأوائل، يتمثل في قدرته البيانية الفائقة في إعادة طرح الإسلام بلغة حديثة تتناسب مع ثقافة الجيل يومذاك. وإذا كان

الكثيرون ولجوا قبله هذا المجال، فإنَّ النجاح الذي حققه شريعتي لم يحققه سواه[١].

آية الله الشهيد الدكتور محمد حسين بهشتي

لقد أوجد الدكتور ـ علي شريعتي ـ طوال السنوات الحساسة ـ من عمر الثورة الإسلامية ـ جواً حماسياً مؤثراً، وكان له دور بنّاء في جذب الطاقات الشابة المتعلمة نحو الإسلام الأصيل، واجتذب قلوباً كثيرة نحو الثورة الإسلامية. وعلىٰ الثورة والمجتمع أن يقدّرا له ذلك الدور المؤثر.

كان الدكتور ـ علي شريعتي ـ **رجلاً عاملاً مجدّاً، لقد كان فناناً بحق، وهذا الجانب الفني يظهر في قلمه وكتاباته. كان يرغب حقاً أن توجد حركة وثورة إسلامية أصيلة في بلدنا بعيدة عن التأثر بثقافة الشرق والغرب، تقوم على أساس التعاليم الإسلامية، وكان يعشق تلك الفكرة.**

كان يعير الجيل الشاب أهمية كبرىٰ، وكان يعرف معاناتهم وهمومهم، وقادر على بيانها. كان يشكل رصيداً قيماً، وكان باحث، وقد ارتكب بعض الأخطاء في استنتاجاته الإسلامية والاجتماعية، لا بد من ملاحظتها في كتاباته[٢].

(١) مجلة الوحدة، العدد ١٦٢/ رجب ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) من أجوبة الشهيد الدكتور بهشتي على أسئلة الطلبة الجامعيين حول الدكتور شريعتي، راجع كتاب: الدكتور شريعتي باحث على طريق التكامل، تأليف الشهيد بهشتي، دار البقعة، الطبعة الثانية ١٩٩٩م (باللغة الفارسية).

آية الله السيّد محمود الطالقاني[١]

. . . ، جاء رجل إلى الإمام جعفر الصادقعليه السلام وهو مضطرب، فخاطب الإمام: يا بن رسول الله هلكت. فسأله الإمام: وماذا حدث؟ فأجاب: إني شككت بوجود الله. فهدأ الإمام من روعه، وبدلاً من تكفيره أو طرده قال له: الله أكبر هذا أول اليقين، فالله الذي عرفته وعبدته من قبل كان صنيعة خيالك وأوهامك، كان صنماً صنعته أنت، ليكون آلة بيدك تستخدمها لصالحك. الآن شككت بذلك وحطمت ذلك الصنم، وقد بقي عليك أن تواصل طريق اليقين لتصل إلى الإيمان الصحيح. . .

هناك الكثيرون ممن يعبدون إلهاً كهذا، إنهم يحتاجونه كوسيلة للعيش والشفاء من الأمراض، وكبديل عن العمل والسعي والطب والعلم و. . . ، إن ذلك الإله هو تماماً كالصنم الذي تصنعه الأوهام والخيالات المريضة لبشر ضعفاء.

لا شك أيضاً بأن كثيرين يبدأون بالشك، ويبقون أسراه دون أن يستطيعوا الخلاص منه والعبور إلى اليقين. أما الشك الذي نتحدث عنه، فهو الذي يعتبر أول اليقين، ويعتبر حافزاً على البحث والدراسة الجادة، . . .

. . . إن المرحوم شريعتي، تميز بروح مستقصية شكاكة منذ بداية شبابه وأوائل عهده بالدراسة والتحصيل العلمي. كان يشك

(١) أحد الرموز الكبار للثورة الإسلامية في إيران.

بكل شيء، حتى بدينه؛ فقد كان يشك بالدين السائد بين الناس، أي بذلك الإسلام الممسوخ، ذلك الإسلام الذي حُوّل إلى دكان للارتزاق، ووسيلة للاحتراف وتربية «المريدين». كان لا بد لشاب واع مثل شريعتي أن يبدأ بالشك، لكنه لم يبق أسير الشك.

بدأ بالدراسة، بحث في الأصول، قرأ في المناهل الأولى، فكر وتمعن في التفكير، هاجر في أرض الله الواسعة، والتقى بالناس في العالم، واحتك بمختلف المدارس والمناهج، فتوسعت آفاق فكره، حتى بلور مفهومه عن إسلام ثوري حيّ. . وعاد إلى وطنه حاملاً عبء الرسالة. إن هذا التحول والتطور إنما عاشه معظم شبابنا، ولكن ليس كل واحد منهم بشريعتي، ليستطيع أن يَعْبُر مخاض الشك والتردد فيصِل اليقين.

في ظل أكثر العهود إرهاباً وسواداً، حيث كان مجرد ذكر الإسلام الثوري، يعد أكبر جرم في نظر الطغاة، بدأ شريعتي مهمته، فكسب قلوب الشباب وبدأ بتغيير مفاهيمهم. فقد كان الشباب إما أسرى مناهج ومدارس فكرية أخرى، أو مبهورين وغير واثقين من أنفسهم. إن علي شريعتي رسخ ثقة عميقة بين الشباب، ثقة بأصالتهم وفكرهم وبقدرتهم على الوصول لليقين؛ ورغم كل هذه الجهود الجبارة، فقد كان يردد طوال عمره وإلى أن وافته المنية: **لست منزهاً عن الأخطاء؛ وغالباً عندما كنا معاً، كان يقول لي: قوّمني إذا أخطأت، ناقشني لأرى كيف يمكن أن أصحح أخطائي. إن هذه كانت من صفاته البارزة، إذ أن على الإنسان أن**

يتوقع دائماً بأنه قد يخطىء وأن عليه تصحيح خطئه.

❊ ❊ ❊

كان دائماً يستمع للآخرين، ويفكر في القول ليتبع أحسنه. كان يأخذ ما هو الأحسن من كل مدرسة وفكر: مدرسة اليسار، مدرسة اليمين، مدرسة الإسلام، وقد قال لي مرة: **إنني آخذ جملة أو فكرة من كتاب عادي جداً، كتاب ديني شائع مثلاً، فأبرز وأطوّر ما لم تقع عليه أعين القراء.**

لقد كان إنساناً نبيلاً خلوقاً متواضعاً، وكم ظلمه أولئك الخصوم الذين اتهموه بأنه عنيد لا يقبل النقاش.

كان يتحدث ويكتب ثم يقول للآخرين: **ناقشوني وقوّموني فلربما كنت أنا على خطأ**... ومن خلال النقاش الصبور الدؤوب، استطاع أن يبلور ذلك النهج الإسلامي الذي هو كفيل بتغيير أمة بكاملها، واستطاع أن يسترجع شبابنا من «قصور الشباب» التي بناها الشاه، ليلهو فيها الشباب وينسوا رسالتهم الاجتماعية ويصبحوا مشوهين وممسوخين. لقد استرجعهم شريعتي بعدما جعل من حسينية الإرشاد مناراً ومركزاً للاستقطاب.

❊ ❊ ❊

كل يوم.. كنا نشهد معركة ضد شريعتي في أحد أحياء العاصمة. لقد شنّوا عليه حملات ظالمة مستمرة. كنا نقول لأولئك المتحاملين: ماذا حدث؟ إذهبوا واسمعوا آراءه وناقشوه، وقدموا له الرد الذي تريدون. لكن الأمر كان يجري على نحو آخر، إذ كان

البعض يقتطع جملة أو فقرة من كتاب له، ويستخدمها لتشويه فكره والتحريض ضده في الاجتماعات العامة ومختلف الأوساط. تلك الاجتماعات التي كلنا نعلم بأن السافاك كان وراء تنظيمها ـ سراً أو علانية ـ.

لكن تلك المحاولات لم تنل من شريعتي، وقد حققت أفكاره تغييرات كبرى في عقول الواعين من الناس، وخصوصاً في عقول الجيل الجديد. إن الانجازات التي حققها شريعتي في قلب مفاهيم بأكملها بين الناس، هو الذي مهد لثورتنا العظيمة وأرسى أسسها.



إن آخر مرة التقيته فيها، كان عندما خرج من السجن، وقد سهرنا الليل معاً إلى ما بعد منتصفه، وقد تلمست فيه صفاء روح واجادة تعبير لن أنساهما طوال حياتي؛ وعندما كنت أتحدث، كان يستمع إلي بكل جوارحه، ثم يعلق على الموضوع فيغنيه بشرح أوضح وتعبير أفضل. كان آخر موضوع تحدثنا حوله، هو سورة القدر، وتفسيرنا لمسألة ليلة القدر. أنا قلت جملة واحدة، فتلقفها مني، وشرع بتحليل بهرني وجعلني أنسى الوقت، فلم انتبه إلا وقد مرت ساعة من بعد منتصف الليل... بعدها ودعته وافترقنا...

سار هو نحو قدره، نحو «ليلة قدره»، وسرت أنا نحو قدر آخر، نحو السجن، حيث اقتربت من الموت، لكنني لم أحظ

بالشهادة، ولربما كانت مشيئة الله تريد بي شيئاً آخر. أما هو فقد هاجر متجهاً نحو الشهادة.

أرجو من الله، أن يحفظ أفكار ونظريات ذلك الإنسان العظيم، حية في الأذهان. كما أرجو منكم أن تدرسوا مؤلفاته وأفكاره وأن تطوروا مواضيعها.

ناضلوا وسيروا على الدرب الذي انتهجه شريعتي من أجل تشخيص ومعرفة الإسلام الذي نريد، إسلام الثورة الإجتماعية، لا إسلام تقليدي وذاتي.. فهذا ما كنا ننتمي إليه دوماً دون جدوى.

إن مسؤولية الحفاظ على الثورة ومواصلتها، تقع على كاهل الجيل الجديد. إنني أعيش آخر أيامي، وقد وصلت إلى نهاية حدّي. أرجو من الله أن يحفظ ويوفق الذين لا زالوا على الدرب سائرين[١].

فرانز فانون[٢]

«...، إن الاسلام سبق كل آسيا وأفريقيا في الكفاح ضد الاستعمار والغرب، لماذا؟.. لأن الإسلام تعرض، قبل أي شيء آخر، في هاتين القارتين إلى حملات الاستعمار والغرب، فقد كان

(١) فقرات من كلمة آية الله السيد محمود الطالقاني في جامعة طهران. بمناسبة ذكرى استشهاد شريعتي.

(٢) مناضل كبير في الثورة الجزائرية، ومؤلف كتاب معذبو الأرض الذي ترجمه شريعتي للفارسية.

أعداؤه الألداء، أثخنوا جسمه بالجراح وشوهوه، لذلك نرى الحقد الأصيل للإسلام على الاستعمار.

إنني لا أحمل للإسلام نفس المشاعر التي تحملها أنت، ولكنني أتفق معك وأؤكد على كلامك بقوة ـ وربما أكثر منك أيضاً ـ بأن الإسلام في العالم الثالث هو أكثر العناصر والقوى (الاجتماعية والايديولوجية) التي تستطيع مواجهة الغرب، والتي لها بالأساس طبيعة مناهضة للغرب.

إنني آمل من كل قلبي، بأن يستطيع المثقفون الأصيلون في بلدانكم، التمسك بذلك السلاح الجبار، بذلك الاحتياطي الضخم من الثروة المعنوية والثقافية، الكامن في أعماق المجتمعات الاسلامية. إن ذلك ضرورة حيوية، من أجل توعية واستنهاض الجماهير، للكفاح ولمقاومة حملات أوروبا، ولمقاومة الأفكار والحلول والوساوس التي تتسلل إلى بلداننا من أوروبا.

إن التمسك بالاسلام ضروري لخوض تلك المعركة الدفاعية، ولإرساء الأسس من أجل بناء إنسان جديد وحضارة جديدة. لذلك فمن الضروري أن تُبعث الروح الإسلامية في الكيان الشرقي الذي ضعف وانحطّ. إنني شخصياً لا أستطيع القيام بدور في ذلك، **ولكنني واثق بأنك واخوانك تتحملون مسؤولية آداء تلك الرسالة، . . .**»[1].

(١) مقتطف من رسالة بعثها فانون إلى شريعتي، وتعتبر من رسائله الأخيرة.

علي شريعتي: حياة وفكر

بقلم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا
استاذ اللغات الشرقية
كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة

لا شك في أن ثورة إيران الإسلامية أهم أحداث القرن الرابع عشر الهجري قاطبة إن لم تكن أهم الأحداث في تاريخنا المعاصر، بل إن الانتصار المحيّر لهذه الثورة سوف يكون مجال بحث وأخذ ورد ونقاش مستمر بين الباحثين في العالم، ذلك أنه ـ وربما لأول مرة في التاريخ ـ تقف أمة مستضعفة خالية الأيدي مفتوحة الصدور إلا من سلاح واحد تملكه، وهو الإيمان في وجه قوى طاغوتية، وتقف وتصمد ولا تبخل ببذل الروح والدم حتى تجندل في النهاية كل القوى الطاغوتية، وتُلقي بها في مزبلة التاريخ، وهذا في حد ذاته يثبت أن سلاح الإيمان غير قابل للهزيمة، ويبرهن تماماً إلى أي حد تستطيع البلاد الإسلامية أن تستفيد من هذا السلاح القديم الجديد، الخفي والمتروك، لكنه كالنار تحت الرماد يومض ويحيا في قلب الأمة.

هذا الأصل الإسلامي للثورة، أي الأفكار الإسلامية التي فجرت الثورة وفي الوقت نفسه فجّرتها الثورة فتحولت من خلالها إلى قوى حية وفعالة، هو بلا جدال أهم أصول الثورة، لأنه مهما قيل عن اتجاهات الثورة، ومهما كان الهجوم الذي تتعرض له من عدو حاقد أو منافق مشفق أو مدّعي أخوّة لكي يشوه من وجه الثورة، فإن الثورة الفكرية التي واكبت الثورة الفعلية سوف تبقى وتنتشر، ذلك أن تأثير مفكري الثورة «**علي شريعتي**» «**وآية الله الطالقاني**» «**وآية الله مطهري**» «**وغيرهم**» في نشر الفكر الثوري، وتحويل المبادىء إلى تيارات حية في قلب الأمة لا يقل تأثيراً إن لم يزد عن دور أولئك الذين بذلوا الأرواح.. في الميادين وإن كان علي شريعتي أبعد أثرا.. لقد كان الحاضر الغائب في ساحة الصدام، ذلك أنه كان قد استشهد قبل انفجار الثورة بعدة شهور.

ولد علي بن محمد تقي شريعتي في «مزينان» وهي قرية من قرى سنروار في منطقة خراسان تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت كوير» سنة ١٣١٢ هـ. ش [ديسمبر سنة ١٩٣٣م]، كان أبوه محمد تقي شريعتي من كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، أسس في مدينة مشهد بالاشتراك مع عدد من رجال الدين المناضلين «مركز الحقائق الإسلامية» (كانون حقايق إسلامي)، وقام بنشاط واسع في تنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من (الدخيل) والخُرافة.. كما قام بتوعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع، وفي مثل هذه البيئة، وفي كنف مثل هذا الأب شبَّ (علي شريعتي)، مهتماً منذ طفولته

بقضايا الدين والأمراض المنتشرة في المجتمع، مدركاً أن مبادىء الدين الموجودة في الكتب التي تُدرّس شيء، وتلك الشعائر التي يمارسها الناس شيء آخر، أمّا التشيع الحقيقي فهو شيء ثالث مختلف تماماً، وبالرغم من اكتشافه هذه الحقيقة في سن صغيرة، لم يقم كما قام غيره بالفرار من الدين والنفور منه ونبذه ظهريا. . كان يرى أن الدين في حاجة إلى ثورة تقوم بتحويله من عامل ضعف وخمول إلى عامل قوة وطاقة وحياة.

إلى جوار ذلك لم يعكف شريعتي على البحث المُجرّد فحسب، بل انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد صبياً، وبعد سقوط **مصدق** انضم إلى حركة المقاومة التي أسسها **آية الله زنجاني وآية الله طالقاني ومهدي بازركان**، وعندما ضربت بعنف سجن شريعتي ستة أشهر ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الآداب (سنة ١٩٥٨) وعندما تخرّج من الجامعة من كلية الآداب بدرجة الإمتياز في السنة التالية برغم كل هذه الظروف، أُرسل في بعثة إلى فرنسا (سنة ١٩٥٩).

وتُعد سنوات فرنسا من أكثر السنوات خصباً في حياة شريعتي القصيرة العريضة، كان شاباً ذا ضمير طاهر ذكيا يقظ القلب، مسلماً حقيقياً يعرف تماماً قيمة كونه مسلماً حقيقياً، عرف تراثه جيداً، وحمل معه زاداً غنياً وفياضاً وقيماً من الثقافة الإسلامية، وبالتالي لم يتعرض شريعتي لتلك الصدمة التي يتعرض لها المبعوثون من العالم الفقير المستضعف عندما يتعاملون مع العالم الغني المستكبر لأول

مرة، فتكون نتيجتها أن «يتغربوا» و «يفرغوا من الداخل» و«يتشبهوا» دون مقاومة لم يحس بنفسه قط «كمسلم» ضئيلاً أو صغيراً أو متخلفاً أمام الجبروت الغربي، لم يفقد شخصيته الإسلامية وذاته الحقيقية، بل على العكس كانت فرصته سانحة لكي يعرف شريعتي عن قرب حقيقة الحضارة الأوروبية، والشخصية الغربية وكبرياءها وغرورها، ووسائل الاستعمار الجديد، وسياسة السلب والنهب والتسلل وطحن الإنسان، وعلى أساس من هذا الفهم وضع شريعتي أهم نظرية في فكرة الحي الثوري، وهي نظرية العودة إلى الذات، ومرة أخرى وبعد ما يقرب من مائة سنة من **السيد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده**، يثبت علي بن محمد شريعتي أن المسلم الصادق المؤمن العارف بأصول الفكر الإسلامي والمتفهم للإسلام جيداً لا يمكن أن يحوّل وجهه عن الإسلام أو أن يرضى عنه بديلاً، وأن الحضارة الغربية مهما كانت «عالمية» ومسيطرة ومتسلطة لا يمكن أن تصلح للمسلم الحقيقي، بل إن المسلم الحقيقي يستطيع أن يدرك نقاط الضعف في الحضارة الغربية وأن يستغلها لصالح الإسلام، على الأقل عندما يقوم بمقارنة هذا الذي يُقدّم على أنه «الحل الأخير» بما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وهكذا فعل شريعتي عندما اختار علم الاجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن تلك الشعوب الإسلامية المقهورة لن تتحرك إلا بالدين، ولن تنجو إلا بالإسلام فنال الدكتوراه في علم الاجتماع الديني كما نال دكتوراه ثانية في تاريخ الإسلام وفي فرنسا واصل

نشاطه السياسي فأسس فرع أوروبا **لحركة تحرير إيران** التي أنشأها بازركان وطالقاني سنة (١٩٦١)م، وشارك مشاركة فعالة في دعم الثورة الجزائرية، وتعرف على مناضلي العالم الثالث من أمثال **إيما سيزار وفرانز فانون** الذي قام بنقل جزء من كتاب «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية، كما سجن في فرنسا لمدة ثلاثة أيام إذ كان ضمن المقبوض عليهم خلال المظاهرات التي اندلعت في فرنسا احتجاجاً على مصرع **لومومبا**.

وفي منتصف الستينات عاد شريعتي إلى إيران، وعلى الحدود ألقي القبض عليه ثم أطلق سراحه بعد فترة، عُيِّن مدرساً بجامعة مشهد. حسناً: كان شريعتي يستطيع آنذاك أن يكون أستاذاً مثل بقية الأساتذة، مفكراً مزيفاً ومفرغاً من الداخل وناقداً وعالماً بالغرب ودليلاً متطوعاً للتنوير والتغريب ذا حيثية وأموال ووجه متألق في وسائل الإعلام، متحدثاً في كل محفل، وخطيباً لكل مجلس، لكن متى يمكن للمسؤول الملتزم ذي الهدف المحدد الواضح أن يكون أهلاً لهذه الأمور؟! عاد شريعتي وبدلاً من أن يقوم بترجمة «الوجود والعدم» لسارتر ويشتهر كفيلسوف «وجودي» ترجم «سلمان الفارسي» لماسينيون، وبدلاً من أن يكتب عن أقطاب الغرب كتب عن «أبي ذر الغفاري»، وبدلاً من أن يتحدث عن الأصول، التي لم تكن موجودة سوى في خيال الإعلام (الشاهنشاهي)، وفلاسفة الماركسية الشاهنشاهية المفسّرين لعهد «أعتاب الحضارة العظمى»، أخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني، وكم من الأحجار ألقاها في

ذلك المستنقع الآسن الذي كان غائباً في نوم الغفلة، وفجأة خلال هذا الحلم (الشاهنشاهي) عن «حضارة الشاه العظمى» التي تقوم بإحياء عظام ملوك جاهلية إيران، يُعلن الشاب أن إيران لا تملك سوى حضارة الإسلام ولا علماء ولا شعراء، ولا فلاسفة، ولا أدباء فيها إلا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويصبح ذلك الشاب الذي يبلغ نيفاً وثلاثين سنة حجر عثرة، ليس بالنسبة للبلاط فحسب بل بالنسبة لرجال الدين المنتسبين إلى البلاط «أولئك العمال الهواة للظلمة» والذين كانوا يجاهدون في تلقين الناس «إسلاماً مزيفاً ضعيفاً متوائماً مع الطواغيت مؤدياً إلى النوم». . وكان صوت شريعتي مخلصاً عالماً بعيد الغور بسيطاً في نفس الوقت بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك، ولم يكن هناك بد سوى طرد الشاب «الخطر» من الجامعة ونقله إلى إحدى القرى النائية معلماً في المدارس الابتدائية لكن «لا بأس» إنه لم يفقد صفته كمُعلّم على كل حال فلم يهن ولم يستسلم، والناس يقطعون الفيافي لكي يستمعوا إليه، فتستسلم السلطة وتنقله مدرساً في جامعة طهران، على الأقل لكي يكون تحت سمعها وبصرها قريباً من أعوانها وجواسيسها.

في سنة (١٩٦٩) كانت «حسينية الإرشاد» قد افتتحت لكي تكون مركز إشعاع إسلامي، ويركز فيها شريعتي كل نشاطه ملقياً محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع، مصححاً من خلالها المفاهيم السائدة، ملقياً بثقل الإسلام عاملاً لشحذ الهمم

والتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب، ومؤسساً لخمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة: لجنة لتاريخ الإسلام ولجنة لتفسير القرآن، ولجنة للأدب والفن، ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعي، ولجنة للغة الإنجليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها. والتف حول حسينية الإرشاد جيل كامل من الشباب، نعم، لقد حول المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته، ومرة أخرى أثبت شريعتي أنه هو نفس الأستاذ اليقظ الصامد، وملأ ذلك الرجل الفريد رسالته، وبأسلوب واضح ومفهوم استطاع أن يجعل من قضايا الإسلام قضايا يومية، وفي دروس معرفة الإسلام (إسلام مشناسي) جلا الإسلام في ضوء بقية الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة، وهيأ أرضية مناسبة تماماً للثورة الفكرية، وطرح «التشيع العلوي» في مقابل «التشيع الصفوي التقليدي» وصار وحده جيشاً يقاتل «التغرّب» و«التشبه» و«عبادة الشاه» و«المفكرين المزيفين»، ويقف بالمرصاد للعملاء في لباس رجال الدين ووعاظ السلاطين و«استغلال الدين ضد الدين» وقامت عليه الدنيا وقعدت، فهو حيناً يتهم بأنه وهابي، وحيناً يتهم بأنه زنديق، وهو يقف لكل حملة مفنداً دعاويها فاضحاً ما وراء أستارها، ولا تجد السلطة بداً من إغلاق حسينية الإرشاد (سنة ١٩٧٣) وتقوم بالقبض على شريعتي ووالده، ويبقى في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لصنوف العذاب، ويتدخل المسؤولون الجزائريون فيفرج عنه سنة (١٩٧٥) لكنه يوضع تحت المراقبة ويمنع من أي نشاط، وتسمح له السلطة ـ لأمر في نفسها ـ بالرحيل

عن إيران في مايو سنة ١٩٧٧ ، ويسافر إلى لندن، وبعد شهر من إقامته في لندن يعثر عليه ميتاً، ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية، والكل يعلم أنها من تلك النوبات المصطنعة التي دبّرتها السلطة عشرات المرات لأعدائها، ولا تسمح لجثمانه بأن يدفن في إيران، فينقل إلى دمشق ويدفن في الحرم الزينبي شهيداً شاباً كشهداء الثورة الحسينية التي طالما اعتبرها نموذجاً يحتذى، ويترك لنا حوالى مائة وعشرين عملاً ما بين فلسفي وأدبي وتحريضي لكنها كلها تتخذ من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب، وتؤدي إلى انخراط جيل كامل من الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران، ويكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

ابراهيم دسوقي شتا

ملاحظات مع القارىء

اعتمدت في، كتابي هذا على أقدم وثائق تاريخ الإسلام؛ وقد سعيت إلى رؤية النبي والمدينة المنورة من أقرب نقطة. مضافاً إلى أنني اعتمدت بشكل أكبر على مصادر الأخوة من أهل السنة، آملاً أن يعتمدوا بدورهم في دراساتهم على مصادر أخوتهم الشيعة؛ ليقترب هؤلاء الأخوة من هذا الطريق بعد سنين من الفرقة، حيث لاشك في صحة بعض المعتقدات التي تتبناها كل فرقة لدى الفرق الإسلامية الأخرى.

وقد اتخذتُ من سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري النص الأساسي في هذا البحث، وقد أشرت إلى غيرهما من المصادر حين الرجوع اليها.

كما حاولت ان لا يأتي هذا البحث تكراراً لما قيل وكُتب حول النبي، وان لا يكون اعادة لما يمكن ان يجده القارىء في كتب السيرة.

ثم ان الرؤية التي اعتمدتها في حديثي لم تنطلق من قاعدة الفكر والعقيدة التي اتبنّاها، بل اخترت موقعاً محايداً للاطلال على التاريخ، حيث يطل عبره كل انسان، مهما اختلف انتماؤه الفكري. وحيث ان ما يلتقطه الإنسان من خلال هذا الموقع، يمثل مادة نقية من ايّ لونٍ من ألوان التعصب والتحيز، التي تمثل مرضاً يتعين على البحث العلمي الشفاء منه.

ومن هنا حقّ على القارىء قبول اعتذاري بصدد اللغة، التي انتخبتها للحديث عن رسول الإسلام؛ اذ لم ارد ان أعرض الطريقة التي يرى فيها الإنسان المسلم «محمداً»، بل أردت عرض الطريقة التي يرى فيها المفكر المحايد ـ وهو ينظر بمنظار العلم فقط ـ محمداً صلى الله عليه وآله.

الهجرة

الهجرة

لا ينظر الانسان للعالم بنفس الطريقة التي تتحدث الجغرافية من خلالها عنه. ولا يراه على نهج الحدود التي تحدّها الجغرافية.

ان رؤية الفرد للعالم تتكون تبعاً لأبعاد مجتمعه المادية والمعنوية، فبتغير وتطور أبراج وقلاع المدينة يتغير ويتطور العالم الخارجي أيضاً في رؤى الأفراد الذين يعيشون في محيط تلك المدينة. بل تتناسخ الصورة الذهنية لكل فرد عن العالم مع إطاره الطبقي، وتتطابق معه.

لذا فإن العالم الخارجي كما يراه الفرد يمثل تصويراً لمجتمعه وطبقته في عالم الحقيقة وانستار العيني. وفي علم الاجتماع فإن الذهن والذات يمثلان الرسام والنحات الذي ينحت ويلون الاطار العيني والخارجي للذات بشكله الخاص.

واذا أردنا ان نتحدث بلغة «برجسون» فاننا نقول: ان العالم

الخارجي في رؤية الانسان الذي يحيا في «مجتمع مغلق»[١] عالم محدود، صغير، وراكد. وعلى العكس في رؤية الانسان الذي يحيا في «مجتمع منفتح» فالعالم الخارجي غير محدود، واسع، ويراه متحولاً باستمرار. فالأرض بالنسبة للإنسان الأول أكبر قليلاً من وطنه «والوطن لديه محدود أيضاً باستيطان قبيلته أو قومه والعشائر المجاورة»؛ والسماء سقف جامد، لا يتغير، كقبة تحيط به من كل مكان وقد اتصلت بالأرض في أبعاد قريبة جداً. وجبل قاف هو نهاية عالم الوجود، وجزر (جابلس وجابلق) هي آخر نقطة انتهى اليها الوجود. واذا نظر إلى العالم من شبه جزيرة العرب مثلاً فسوف يرى انه: «ليس وراء عبادان قرية».

من هنا فالعالم ـ في مجتمع مغلق ـ سقف شخصي صغير جداً وراكد، وليس وراء حده المحدود جداً ـ الذي يبعد قليلاً عن حد وطنه ـ سوى العدم أو الابهام الكامل والظلمات. والمجتمع عبارة عن مجموعة من العلاقات والتقاليد والحقوق الشخصية

(١) المجتمع أو الدين المغلق Fermee، والمجتمع او الدين المنفتح Ouverte اصطلاح معروف لهنري برجسون الفيلسوف الفرنسي المعاصر. المجتمع او الدين المغلق هو الذي ينحصر في سور الأسس والعقائد والأعراف والرسوم التي يتبناها، وبالتالي يبقى راكداً، ويظل ثابتاً باستمرار، رغم مرور القرون والعصور. وعلى العكس منه المجتمع المنفتح، حيث يهدم ذلك السور فتُفتح نوافذه بوجه المجتمعات والأديان الأخرى؛ وهذا الانفتاح بنفسه عامل تغيير وتحول دائم ويعود بالغنى والرشد المستمر. الدين والمجتمع اليهودي نموذج لمجتمع ودين مغلق، والاسلام والمجتمع الاسلامي في القرن الثاني والثالث والرابع نموذج للمجتمع والدين المنفتح، المسيحية الحبشية دين مغلق، والمسيحية الأوروبية الغربية دين منفتح.

الأزلية والأبدية، والدين ايضاً عبارة عن مجموعة من العقائد والممارسات التي لا تتغير، بل «منزَّلة» تُطاع دون نقاش، جبرية وبعيدة عن متناول الفهم والعقل والمحصلة، وخصوصاً ـ في اذهان وارواح مجموع الافراد التابعين له على مستوى ونهج واحد؛ وبتعبير آخر: عبارة عن لون من ألوان الفعل الغريزي الأعمى. وعلى حد تعبير (دوركهايم) فإن الدين هو: «تجلٍّ موضوعي لروح المجتمع العامة وتقديسه»[(١)].

من خلال قراءة علمية اجتماعية للأديان والمجتمعات منذ نشأتها حتى اليوم ـ خصوصاً مع الاستعانة بحكايات تاريخ المدنيات ـ يمكن القول: ان التصاق الانسان «فرداً وجماعةً» بالأرض هو العامل الأساس في بقاء المجتمع على انغلاقه، وبقاء الدين والرؤية للعالم كذلك، وبعبارةٍ أخرى انه علة العلل للركود والتكلس.

تصدق هذه القاعدة الاجتماعية على الطبقات الاجتماعية أيضاً؛ فطبقة الفلاحين ـ كما نلاحظ ـ أكثر الطبقات الاجتماعية ركوداً، وفي اصطلاح «برجسون»: انها أكثر الطبقات الاجتماعية انغلاقاً.

ويرجع «هالبوكس»[(٢)] علة هذا الركود إلى الارتباط الأكيد

---

(١) على انه يمكن اعتبار Durkh. Les formes elementaires de la rélijieuse مقولة دوركهايم صحيحة من زاوية معينة.

(٢) المحقق وصاحب النظرية في مجال علم النفس الاجتماعي، الذي قام بدراسة دقيقة للآثار النفسية والاجتماعية لعلاقة الإنسان ـ الأرض. Holbwacs La Psychologie des Classes Sociales.

والالتصاق الثابت المستقر بالأرض، الذي تتوفر عليه هذه الطبقة، وأدى هذا الارتباط بالمزارع إلى النظر للأرض بوصفها موقعه الأزلي التكويني، وانها صاحبة الإرث المعنوي والنسبي، فأضحى ارتباطه بها ارتباطاً روحياً، مشوباً بلون من ألوان القدسية الإلهية الغيبية، وأضحت الأرض محل سكنه وزرعه ممتزجةً بشخصيته المعنوية والأسرية، وبعقائده وأصوله الاجتماعية والأخلاقية.

ومن القرائن التي يسجلها علم اللغة على هذه الحالة هي: ان الأسماء التي تستخدم لتسمية الفلاح غالباً ما تُشتق ـ بأنحاء مختلفة ـ من الأرض والكلمات ذات الارتباط بها[١].

من هنا يمكن القول: ان المجتمع الذي يبقى رهن ظرفه المكاني يُسجن ويركد، وبالتالي يحرم من الرقي والتحول والتطور، وتبعاً لذلك يتكلس ويتوقف الفكر والعقل والاحساس والعلوم والفنون والثقافة والدين ورؤية العالم، أو يتعفن فيموت أو تستهلكه الثقافة والدين والمجتمع المتحرك المنفتح، الذي يتوفر على التماس به[٢]. فقد كان الغرب ـ وهو يعيش داخل أسوار القرون

(١) فالفلاح في الفرنسية Paysan مأخوذ من كلمة Pays، الأرض. وفي الفارسية «خاكشور» مأخوذ من خاك «التراب» وكون أن من يترك أرض أجداده ويهاجر الى المدينة (حتى لو كان من أجل أن يبحث عن عمل أفضل له) أو يبيع أرضه يُلام من قبل الآخرين، وهذا يدل على مدى الارتباط المقدس بين الفلاح والأرض.

(٢) أعتقد: أن إنحطاط اليونان وسقوط حضارتهم في المجتمع الروماني يرجع الى بقائهم في حصار أسوار المدن والانفصال عن العالم اللايوناني، وعدّ كل أجنبي عنهم «بربرياً» أو على العكس من ذلك بقاء حياة «روما» الذي يعود الى شمولية الرؤية=

الوسطى ـ يعتقد ان اوروبا هي مركز العالم، وان الكاثوليكية دين العالم، وان البشر عبارة عن: حيوان مستوي القامة، عريض الأظافر، لا يغطي بدنه الشعر، يمشي على رجلين، أبيض اللون، أشقر الشعر، أزرق العين... وما عدا ذلك أرض الأشباح وبقاع العجائب والغرائب الغارقة في الظلمات واعتبروا الشرق مليئاً بالأساطير والغرب عالم مرعب ورهيب... وهذه الرؤية هي التي أحكمت حلقات الحصار لألف عام على اوروبا فخنقتها. إلى ان فتحت فجأةً الحروب الصليبية أبواب السور على الشرق[١]. فالمسيحية التي لم تر ديناً غيرها، فتحت أبصارها على الإسلام، وخرجت ملايين البشر من حصار الغرب لتلتقي في الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط بشراً آخر ومجتمعاً آخر وعالماً آخر، فاستبصرت آفاقاً جديدة وأضحى العالم أكبر مرتين مما كانت تتصور، وعثرت ونعرفت على أماكن وبشرية اخرى ـ فاتسعت الرؤى وتكسرت القوالب الجامدة وازيلت الظلمات وتحطمت الحواجز، وبدأت النهضة. واذا أردنا ان نتكلم بلغة علم الاجتماع نقول: يظهر ان عقارب الزمن الاجتماعي ـ التي سكنت قبل الف

= الكونية وسعة نظرتها للعالم. وإحدى القرائن على هذا الأصل: أن الرومان عندما، أحسوا بفراغ وحاجة روحية ـ مع ما توفروا عليه من ديانة وفلسفة يونانية ـ انتهوا في بحثهم عن دين عالمي متعال ينسجم مع رؤيتها الكونية المنفتحة والشاملة الى سواحل البحر الأحمر، فرووا ظمأهم من نبع دين عالمي «المسيحية».

(١) «الحروب الصليبية من عام ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م ـ في خمسة أجزاء، برلين ١٨٨٣م، تأليف هانز بروتز» يعتقد المؤلف أن نهضة أوروبا وحصول الاكتشافات والاصلاحات وبدء مدنية الغرب المعاصر يرجع سببها للحروب الصليبية، لا غير.

عام، وتوقفت على الرقم «٣٩٥»[(١)] - تشير إلى انها أخذت تتحرك، وتزداد حركتها سرعةً لحظة بعد أخرى.

انحلال الأسس والعلاقات القديمة والانفتاح على الحضارة الجديدة - الذي حصل للغربيين بعد الحروب الصليبية -، فاتساع العالم وتنوعه في ابصار الغربيين، أدت هذه العوامل إلى احياء روح السياحة لدى الغربيين، ودفعتهم لطواف الشرق والغرب وركوب طرقٍ جديدة؛ بغية اكتشاف اراضٍ جديدة والتعرف على الآفاق البعيدة، التي ارتسمت صورها في أذهانهم؛ وعلى هذا الأساس بلغت حركة الاكتشافات الجغرافية أوجها إبان القرنين الخامس والسادس عشر، فوضعت اوروبا أقدامها على ارض الشرق في آسيا وافريقيا، التي كانت تعدها ارض الأشباح والأساطير، واكتشفت في الغرب القارة الأمريكية؛ وعلى هدى هذه الاكتشافات أقامت أسس حضارتها العظيمة. ومن هنا يتفق المؤرخون وعلماء الاجتماع على ان الحروب الصليبية «هجرة الغربيين للشرق»، والاكتشافات الجغرافية «الهجرة لأمريكا وافريقيا وآسيا» تمثل العلة الأولى لنهوض وحركة اوروبا والعامل الأساس في ظهور مدنية الغرب المعاصرة[(٢)]. ويتجلى دور هذا العامل ابضاً في المدنية

(١) عام ٣٩٥م بداية القرون الوسطى وعام ١٤٥٣م نهاية هذه القرون بفتح القسطنطينية على يد المسلمين.

(٢) ان هجرة القبائل الآرية شبه الوحشية الى الجنوب والغرب أقامت أكبر الحضارات الشرقية والغربية، وهجرة الساميين الى ما بين النهرين والى مصر وشمال افريقيا أدت الى تأسيس الحضارات العظيمة في سومر وبابل وأكد، وهجرة بني إسرائيل=

الأمريكية المتقدمة الجديدة ـ التي قامت على اساس الهجرة. اجل؛ فقد لاحظنا كيف بنى المشاغبون الأوروبيون ـ الذين لو بقت أبواب اوروبا مغلقة في وجوههم لتحولوا إلى أدوات جناية وسرقة وعدوان في مجتمعهم ـ وشيدوا أكبر مجتمع متمدن في العصر الحديث بعد ترك أرضهم والهجرة إلى القارة الجديدة.

اعتقد: ان قراءة الأديان المغلقة والمنفتحة، ودراسة المجتمعات والحضارات المغلقة والمنفتحة في تاريخ البشرية تثبت الحقيقة العلمية الاجتماعية التالية: ان الهجرة «قطع علاقة المجتمع بالأرض» تغيّر رؤية الانسان للعالم، وتحولها إلى رؤية شاملة. وفي المحصلة تذيب جليد الجمود والانحطاط الاجتماعي والفكري والعاطفي، ويحصل المجتمع المتكلس الراكد على الحياة والحركة. وبعبارة أخرى: بحكم كون الهجرة بذاتها حركة ونقلة انسانية كبرى فهي تبث في رؤية المجتمع روح الحركة، وبالتالي تهز المجتمع، وتنقله من إطاره الجامد إلى سلّم الرقي والكمال المتصاعد.

من هنا تختفي وراء بزوغ كل حضارة هجرة، وحينما نصغي

= من مصر الى فلسطين، وهجرة البربر الى الغرب والشرق، وهجرة الافرنج، والاسلاف والسكسون... الى أوروبا المعاصرة تدل جميعها على أن العامل الأساس في نقلة المجتمعات البدوية والقبلية الى مجتمعات متمدنة كبيرة هو الهجرة. وقد صاحبت الهجرات الكبرى للقبائل شبه المتوحشة على الأرض طلوع المدنيات وبناء المجتمعات الكبرى والأمم والثقافات والأديان والنظم المتقدمة وعمارة الأرض، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم «ومراغماً كثيرةً واسعةً».

لتاريخ أي مجتمع عظيم نجد لغته أو أساطيره تحكي عن هجرة.

ولذا فالهجرة في تاريخ الإسلام «القرآن وسيرة النبي» ليست واقعة من وقائع هذا التاريخ فحسب، بل هي أساس اجتماعي رئيسي؛ واذا طالعنا الإسلام مطالعة دقيقة فسوف نجد ان الأمر على هذا المنوال.

هاجر المسلمون إلى الحبشة بأمر من النبي هجرتين؛ فلأول مرة تهجر جماعة بشرية عربية ـ وهي تسكن في وادٍ تحيطه الجبال، حيث تقع مكة ـ قبيلتها؛ وتترك أرضها، بل خرجت في هجرة جماعية لبلد خارجي. فتعبر البحر، وتضع أقدامها على أرض قارة أخرى؛ لتعيش في محيط اجتماعي وسياسي وعرقي جديد.

ثم الهجرة الكبرى صوب المدينة، هذه الهجرة التي فتحت أبواب المدينة المغلقة على العالم الخارجي، كما عرّفت المهاجرين من قريش بمجتمع ومحيط وظروف جديدة.

سعى نبي الإسلام لفتح آفاق المجتمع القبلي العربي، وتطوير رؤيته للعالم... عن طريق تنفيذ سياسة تستند على الاتصال بالقبائل المجاورة وتوسيع دائرة نفوذه إلى أبعد الحدود الممكنة واستقبال الوفود وارسال المبلغين والسفراء إلى أطراف شبه الجزيرة بل والى ما وراء الحدود والاتصال مع ايران والروم الشرقية ومصر واليمن وغيرها من البلدان... ولم تشر جميع القرائن في حياة النبي لهذه الحقيقة فحسب، بل لقد اعتبرت النصوص «أقوال النبي وآيات القرآن» الهجرة، خصوصاً أرقى ألوانها «الهجرة الفكرية

والعقائدية»، أصلاً مقدساً، بل تكليفاً انسانياً. وقد جاءت النصوص صريحةً في هذا المجال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١)

فالمهاجر في طريق الحقيقة في هذه الآية لا يقف إلى صف المجاهد فحسب، بل يتقدم عليه، كما نلاحظ، فبعد الإيمان تأتي الهجرة مباشرة كأعظم أصل عملي ووظيفة انسانية مقدسة. وهذا التقدم والتأخر ذو دلالة ـ في السياق القرآني ـ ويستحق الوقوف عنده والتأمل فيه وليس عبثاً وصدفة على الاطلاق.

﴿. . . فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(٢)

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(٣)

فالهجرة في هذه الآية الصريحة عامل على طريق حياة أفضل للمظلومين وسبب للتمتع الأكبر بهبات الحياة الدنيا. وهذه حقيقة واقعية يعرفها التاريخ أفضل مما يعرفها أي شخص آخر.

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٨ .
(٢) سورة آل عمران/ ١٩٥.
(٣) سورة النحل / ٤١.

لاحظ الآية التالية، فهي نداء لكل بني الإنسان الذين مدّوا يد المداهنة والعار، وخضعوا تحت انقاض الظلم والفساد، وأخمدوا شعلة الروح، ولم ينهضوا بسبب تعلقهم بالروابط العاطفية والسنن الاجتماعية أو امتلاكهم للرؤى السياسية المتقاربة والنفس الضعيفة الهزيلة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١)

ما الذي لا يمكن الافصاح عنه هناك؟ الحق والحرية: سجنوهما تحت سقوف واطئة، وخلف أبواب مغلقة، تحت أسوار الاضطهاد المحصنة، فماتوا! والى الأبد.

يبدو ان الله هنا يأمر اولئك الذين تستنير قلوبهم بشعلة الايمان والذين يحسّون بثقل المسؤولية الرسالية على عواتقهم: بعد العزم على الله. اهجر دارك! فر! لا يمكنك ان تكون رجلاً بحق، ان تتعلل بانك ولدت هناك... ان بيتك وعشيرتك وشهرتك هناك، حيث حريتك وايمانك. لا تركن هنا حيث

(١) سورة النساء/ ٩٧ ـ ١٠٠.

الظلم وأسر الحقيقة؛ فالبر والبحر واسعان، وبنو آدم كثيرون.

ان اولئك الذين يستسلمون لأجل الحفاظ على أرواحهم وأموالهم واعتبارهم الاجتماعي يظلمون أنفسهم، وسيُحرمون مما باعوا حريتهم وايمانهم لأجل الحصول عليه. وعلى العكس اولئك الذين يتجاوزون عن كل ما لديهم في سبيل الله ويهاجرون فسوف يحصلون بالهجرة على أكثر مما فقدوه عندها. والتاريخ يفسر هذه الحقيقة تفسيراً جيداً.

في ضوء ملاحظتنا لأسلوب القرآن الكريم نجد انه حينما يتحدث عن الهجرة يصفها بأنها «ضرب في الأرض» و «خروج أو اخراج من الديار»... وتعبيرات من هذا القبيل. من هنا يتضح بجلاء ان الاسلام يحضُّ على ترك مسقط الرأس والأهل أو الوطن والمجتمع لأجل:

١ ـ انقاذ حرية وشرف الفرد على طريق الايمان «قصة أصحاب الكهف المعبرة الجذابة، والهجرة للحبشة».

٢ ـ الحصول على امكانيات جديدة وظروف مساعدة خارج محيطه الاجتماعي والسياسي الظالم للنضال ضد هذا المحيط؛ وبعبارة اخرى ترك مجتمعه من اجل العودة اليه فاتحاً منتصراً. «الهجرة من مكة إلى المدينة، وقصة موسى...».

٣ ـ اشاعة وترويج الفكر والعقيدة في بقاع ومجتمعات اخرى؛ لأداء رسالة انسانية عالمية يلتزم بها كل مسلم، ويتحمل

مسؤوليتها امام البشرية لتوعيتها وتحريرها وإسعادها، «ارسال المعلمين خارج المدينة والبلاد الاسلامية».

٤ ـ قراءة العالم ومعرفته معرفة علمية: ويشمل الطبيعة «خصوصاً الجغرافية الطبيعية والانسانية والاقتصادية، والاحياء، والنبات والماء والهواء...» وكذلك الإنسان «معرفة الشعوب والملل والأصول العرقية، والمجتمعات واساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، العادات والتقاليد والأديان... وبشكل عام وكل ما يتعلق بمعرفة الإنسان ومجتمعه...». وبتعبير جامع ودقيق وهو ما يستخدمه القرآن الكريم ذاته: «سير في الآفاق والأنفس» (الطبيعة والحياة)، سير ولكن لا على النهج «الارسطي» العقيم بل بمنهج علمي. ويعني: الملاحظة، «التجربة والاستقراء»؛ لا ان نجلس وننسج بمعرفة النبوغ والمنطق الصوري والدليل المجرد تعريفاً جامعاً مانعاً لمعرفة ظواهر الطبيعة ومشكلات الحياة، بل ان نبحث ونشاهد ونجرب ونحلل ثم ننتهي إلى التعريف العلمي.

من العجيب حقاً ان مسألةً باسم «التأريخ وفلسفة التاريخ»، «تحليل ودراسة أسباب رقي وانحطاط وحياة وموت الحضارات والمجتمعات الماضية» لايزال مفكرون كبار في عصرنا الحاضر يعدّونها «فناً» أو لوناً من الفلسفة أو الآداب. فيتناولونها في الأغلب بمنهج ذهني وعقلي[١]. في حين نجد ان

---

(١) فلسفة التاريخ، امرنف. وكتابنا (التعرف على الإسلام)، ص١٣٣ ـ ١٣٨.

القرآن الكريم يعدها من صنف العلوم الحسية والعينية؛ ومنهج دراستها هو المنهج الحسي والعيني Meth. Objective، وبعبارة أخرى المنهج الذي اختاره ديكارت ونيوتن وغاليلو للعلوم الطبيعية. «فالنمو المذهل الذي أحرزته العلوم والتقدم المدني في القرون الحديثة يرجع الفضل فيه لاختيار هذا المنهج بدل منهج القياسي الارسطي».

فالقرآن الكريم لا يقتصر على اقتراح دراسة العلوم الانسانية وحتى التاريخ الذي لايزال في أبعد النقاط عن العلوم البحتة، بل يُلزم بهجرة علمية الزامه بأي واجب ديني[1] ﴿. . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . .﴾[2].

﴿. . . فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

---

(١) بغية معرفة منهج القرآن في التحقيق العلمي للتاريخ وخصوصاً قيمة التاريخ في القرآن، وعلى الأخص نتائج التاريخ وكيفية استخدامها الأصولي في علم الاجتماع وتحليل قضايا وظروف المجتمع والسياسة المعاصرة، يجب مطالعة قصص القرآن بشكل دقيق في ضوء هذا الطموح. وسورة الروم ـ التي تحفل بالمادة والعمق الخصيب في نظر المؤرخ وعالم الاجتماع ـ نموذج جلي في مجالنا. على أن لا تحجز الدهشة ـ بنبوءة السورة بانتصار الروم على الفرس في العام القادم التي تحصل للقارىء عادةً ـ رؤية القارىء من استبصار المفاهيم الأكثر علمية التي تملأ أرجاء السورة، كما حصل ذلك لكثير من المفسرين حيث وقفوا عند حدود النبوءة بالغيب ولم يروا ما هو أثرى منه.

وعلم الاجتماع الحديث الذي يتغذى من الأنثروبولوجيا يدلل لنا على المدى الكبير الذي يرتهن به التاريخ وعلم الاجتماع للهجرة والرحلة.

(٢) سورة يوسف/ ١٠٩

(٣) سورة آل عمران/ ١٣٧.

المسألة المهمة جداً في قضية «الهجرة» (وارجح القول: اصل الهجرة، بل حكم الهجرة) في ضوء ما يظهر لنا من القرآن الكريم، حيث تبلغ بمفهوم الهجرة ما لا يتناهى، وتوسع دائرته هي: ان هذا اللفظ استُخدم في القرآن الكريم بمعناه العام والمطلق. وبلغة علم الاجتماع: ان «درجة المعنى» لهذه الكلمة بلغت الأوج، حيث ارتفعت عن مستوى الأرض «الهجرة من نقطة إلى نقطة اخرى»، وارتقت إلى مستوى الروح الرفيع، وسماء المعنويات الأخلاقية والثورات الفكرية والروحية[1]. وفي هذا الضوء نواجه أصلاً كبيراً وعميقاً وجاداً اسمه «الهجرة»؛ أصل يمكن فهم أبعاده وقيمته حيث يمكن الفهم، فالمسلم القرآني ـ بعد الإيمان وأحياناً قبل الجهاد أيضاً ـ يجد نفسه مواجهاً لأصل كبير وأمرٍ حاسم: ان يهاجر من الخارج، وان يهاجر من الداخل. سفر على الأرض وسفر في عمق الروح، أن يهاجر من المكان الذي لم يبق محلاً للقرار، وان يذهب عنه حينما لا يكون مؤهلاً لاتخاذه منطلقاً. والهجرة لا تنحصر في الاغتراب عن مسقط الرأس، بل تعم أيضاً الاغتراب عن الذات. وفي هذا الضوء يسعى الإسلام لتحريك المجتمع؛ لكن لا يقف عند نقطة فيموت، ويسعى كذلك لتحريك الفرد ايضاً ـ فيدعو الإنسان للحركة من الخارج وللثورة من الداخل: ليصونه بذلك عن التوقف والانحطاط والجمود على الدوام، ويدفعه إلى الحركة والرقي والثورة الدائمة.

---

(١) «والرجز فاهجر...» خطاب القرآن للنبي!

وانما يكون للإسلام ذلك عن طريق المعجزة العلمية «الهجرة»: الهجرة الآفاقية والهجرة الأنفسية(١).

ان متابعة الآثار العلمية للهجرات ـ ببعديها ـ في ضوء علم الاجتماع وعلم النفس، لا يتسنى لي، كما لا يمكن في هذا البحث ان تتضح القيمة الكبيرة لهذا الأصل «الهجرة» في رؤية الإسلام، على ان ذلك يستدعي تحقيقاً مستقلاً ومفصلاً. الا ان الذي لا يمكن اغفاله هنا هو: ان الاسلام يأتي على ذكر الهجرة، بوعي علمي دقيق لآثار الهجرة المدهشة في بناء النفوس العظام والحضارات الكبرى.

ان تسمية أتباع وأنصار النبي الأوائل بالمهاجرين تدلل بنفسها على هذا التوجه، حيث تسمية النبي: السابقين الكبار من أصحابه بالمهاجرين من بين كل الصفات التي يمكن ان يسمهم بها، واختياره لصفة «المهاجر»، ولو لم تكن الهجرة ذات دور عظيم في الفكر الإسلامي لما قدمها على سائر الصفات الأخرى التي يمكن

(١) آرنولد تويبني «أبرز مؤرخي العالم المعاصر» في دراسته الرائعة عن تحليل التاريخ له نظرية باسم أصل الهجرة والرجعة؛ حين يذهب فيها الى ان الشخصيات الكبرى في تاريخ البشرية ـ الذين بنوا الحضارات والأديان والمجتمعات ـ تركت في بدء المرحلة الأولى من حياتها ديارها وخرجت من محيطها الاجتماعي وأرضها، وبعد ايام الغيبة التي أعدت أنفسها فيها لأداء رسالتها الخطيرة عادت الى محيطها وقومها، وبدأت نشاطها. فهذه الرجعة الخارقة والعظيمة سبقتها في الواقع هجرة هادئة وصامتةً، كان لها دور أساس في بناء روح وعبقرية تلك الشخصيات، فقد كان لإبراهيم، موسى، زرادشت، بوذا ونبي الإسلام (حيث يمكن عدّ انزوائه في غار حراء لخمسة عشر عاماً هجرة عن مجتمعه) مثل هذه الهجرة.

ان يطلقها عليهم، تلك الصفات التي لعبت دوراً في بناء النهضة الاسلامية، كالسبق ونصرة النبي، خصوصاً في أيامه العصيبة، وتحمل الأذى والتعذيب الجسدي، واستقبال الأخطار، والاخلاص والإيثار والفداء، وعبادة الحق المطلق، والتجاوز عن المال والنفس والأهل والإعتبار الاجتماعي والأمن والراحة واللذة.

ومما يدلل على هذا التوجه بشكل كامل، ويمثل بنفسه احدى مزايا وخصوصيات الإسلام: اختيار هجرة المسلمين الأولى من مكة إلى المدينة بدايةً للتاريخ[١]. وهذا الاختيار يستحق الكثير من التأمل؛ فالعرف التاريخي قام دائماً على اتخاذ ولادة قائد النهضة أو الدين أو اتخاذ انتصار عظيم مبدءاً للتاريخ. اما في الإسلام فلم يتخذ أي منها، لا ولادة النبي ولا فتوحاته الكبرى «حتى فتح مكة حيث كان ينبغي ان يتخذ مبدءاً للتاريخ في ضوء العرف والسنة التاريخية»، بل الغريب انه لم يتخذ حتى البعثة! بل اعتبر الهجرة مبدءاً للتاريخ.

اما الآن، فمكة ـ أرض الأجداد والأهل وموطن خواطر النبي ـ في قبضة قريش، ولم يفتح محمد ـ خلال ثلاثة عشر عاماً من النضال داخل أسوار المدينة المحكمة وتحت سقفها المحدود والثقيل ـ نافذةً على الخارج. فأما ان يبقى فيها فيموت، واما ان

---

(١) في العام ١٧ و١٨ من الهجرة اتخذ عمر باقتراح من علي الهجرة مبدأ للتاريخ بدلاً عن عام الفيل وغيره من التواريخ التي كانت شائعة آنذاك... «تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٢٥٠».

يعزم على الهجرة لأجل انقاذ الحرية والإيمان واداء الرسالة الإلهية والعالمية الكبرى.

وعلى حد تعبير جورج كثوركيو:[١] «ان القبيلة والعشيرة هي الشجرة الوحيدة التي تنبت في الصحراء، ولا يمكن لأي فرد ان يحيا الاّ تحت ظلها، وقد قطع محمد في سبيل ربه الشجرة التي نمت بدم ولحم عشيرته».

اذن لا بد ان يترك محمد مكة... إلى اين؟ إلى ايِّ مكانٍ آخر! إلى أي مكان يكون موقعاً للحياة بحرية، ومعقلاً للجهاد... وقد هيّأ النبي من قبل «يثرب» لتكون كذلك.

صدر الأمر بالهجرة، لكن قريشاً كانت يقظة كانت تشعر جيداً بالخطر.

أمر النبي أصحابه بترك المدينة سراً، وبشكل فردي، وكانت قريش جادةً في الحيلولة دون خروج أنصار محمد. فقد أمسكوا ببعضهم وسجنوهم، وحالوا دون خروج البعض الآخر باحتجاز نسائهم كرهائن.

لكن المسلمين كانوا اتخذوا قرارهم، وايُّ عامل يمكنه ان يصرف المهاجر عن الهجرة؟

رحل الأصحاب بالتدريج، تاركين معقل الجهل والشرك

---

(١) G. V. Gheorghiu, La Vie de Mehomet.

والظلم، عازفين عن الدار والأهل والثروة، والكثير من ارتباطاتهم العاطفية، وبدل كل ذلك اختاروا الحرية، واستبدلوه بالتحرر. ورغم ان النبي طوى عمراً من حياته في محيط بدوي ساذج خال من الأحداث السياسية والعسكرية الكبرى، لكنه توفر على قدرة قيادية، ونضج سياسي خارق للعادة، وقد كانت أبرز خصائصه قدرته على طرح الخطط السياسية المعقدة والخفية بشكل مذهل. وتجلت هذه القدرة على وجه الخصوص في مرحلة حياته المدنية المثيرة.

لم تكن مكة عالمةً بقرار محمد الشخصي، ولم يكن المشركون وحدهم في غفلة، عن هذا القرار، بل حتى أقرب أنصاره وذويه لم يكن في وسعهم ان يحدسوا أدنى الحدس!

بل لعل أغلبهم كان يُقدر ان النبي سيبقى يواصل جهاده في مكة بعدما أرسل أنصاره إلى يثرب؛ لتجنب الأذى الذي يتعرضون له باستمرار؛ لأنه من بني عبد مناف، وبالتالي فإن حياته في أمن، كما حصل ذلك في ارسالهم بهجرتين إلى الحبشة.

غادر المسلمون بأكثريتهم الساحقة. وعزم ابو بكر على الرحيل أيضاً، وطلب من النبي الإذن. فرد عليه النبي بطريقته في مثل هذه المواقع بحزم جازم وبإبهام: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً! فسكت ابو بكّر ولم يطلب ايضاحاً لمعرفته ان الوقت ليس وقت توضيح.

لم يبقَ في مكة سوى محمدٍ وعلي وابي بكر؛ ولايزال جمع

من أصحاب النبي في الحبشة، وجمع آخر في المدينة، وعدة منهم هاربون، وبعض ـ ممن لا يستند لأسرة ذات شوكة في مكة ـ في أَسْرِ المشركين يخضعون للتعذيب. وشباب مالوا في قلوبهم للإسلام، لكنهم استسلموا لأُسرهم، تحت ضغط آبائهم وكبار قومهم.

خلت مكة في الحقيقة من المسلمين، وليس ذلك أمراً عادياً. بل أغرق قريش في التفكير والتحسب، وقد كانت الأنباء التي تصل من يثرب تزيد خوفهم. حيث اجتمع المهاجرون جميعاً هناك، وقد احتضنتهم جماهير تلك الأرض أعزاء كراماً. وكان ظاهراً على الأوس والخزرج «القبيلتين المعروفتين بين العرب بصبرهما في الحرب وشجاعتهما» انهما مصممتان على أمرٍ أخطر وأهم من ضيافة المهاجرين؛ وانهما تنتظران خبراً ما.

أضحت «يثرب» كلها في قبضة انصار محمد! وليست يثرب كالحبشة. وفي مثل هذا الوضع سوف لن يبقى محمد وعدة معدودة في مكة، فقد انتهت مرحلة الصبر وتحمل المصاعب وأعلنت الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ...﴾[1] وكلمة محمد «اني أحللت لهم القتال لأنهم ظُلِموا... بدء القيام و«النضال الإيجابي»... وسينتقل محمد إلى يثرب؛ ويمسك بقيادة المدينة، ويهدد مكة من الخارج.

لقد كان على قريش ان تفكر في مخرج... فاجتمع في دار

(١) سورة الحج/ ٣٩.

الندوة: عتبة، وشيبة، وابو سفيان، وجبير بن مُطعِم، وابو البختري. وحكيم بن حِزام، وابو جهل، وامية بن خلف. . . وجمع آخر ممن يرتبطون مع قريش بمعاهدة. . . وتشاور الجمع في أمر محمد. اقترح ابو البختري ان يُشدَّ بسلاسل من حديد ويلقى في السجن. ولم يقبل هذا الاقتراح؛ اذ سيشكل خطراً دائماً وسوف ينقذه أصحابه.

ثم اقترح ابو الأسود من بني عامر بن لؤي قائلاً: «نخرجه من بين أظهرنا، وننفيه من بلادنا، فاذا أُخرج عنّا فما نبالي اين يذهب، ولا حيث وقع؛ إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلفتنا كما كانت». وقد خالف الجميع هذا الاقتراح وقالوا: «ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، فلو فعلتم به ذلك ما أمنتم ان يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم اليكم، حتى يطأكم بهم في بلادكم. . . » وأخيراً أشار عليهم ابو جهل رأياً واعياً وحازماً: «أرى ان نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يعمِدوا اليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلنا لهم».

حاصر المتآمرون الدار، وأخذوا بمراقبة النبي من نوافذ البيت. وقال السهيلي: «ذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم

من التقحم عليه في الدار مع قصر الجدار، وانهم إنما جاؤوا لقتله فذكر في الخبر: انهم همّوا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله انها لسبة في العرب أنْ يتحدث عنا انّا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا. فهذا هو الذي أقامهم بالباب.».

أقاموا منتظرين بالباب حتى يخرج النبي. وقد كانوا يراقبون حجرته طول الليل، ويرونه يروح ويجيء. وشاهدوه حين النوم قد استلقى على فراشه واستسلم للنوم.

لقد انتهت المهمة، وارتهنت حياة محمد بمرور هادىء لبضع ساعات، حيث لا يمكن ان يقع خلال هذه الساعات أي حدث، والعدو ايضاً قد وهب هذه الساعات لمحمد؛ اذ كان مطمئناً من ان ابن عبد الله في داره الصغيرة نائم وليس له نصير في البلد سوى شاب لم يتجاوز الثانية والعشرين اسمه علي، وشيخ أكلته السنون يدعى ابو بكر، وكيف يمكنه ان ينجو من الموت والسيوف الشابة المتعطشة تنتظره ببابه بالنيابة عن كلّ الأُسر والقبائل الكبرى[١]؟

بعد ما رأى الفتية النبي بأُم أعينهم قد استلقى على فراشه ونام بهدوء. اطمأنوا على نهاية حكاية محمد عند السحر، وسيعود

(١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ سورة الطور/ ٣٠ و٣١.

الأمن لمكة، ولقريش السيادة وللأوثان العزة التي تزلزلت عبر ثلاثة عشر عاماً، وقد أثار هذا الاطمئنان في نفوسهم طرباً فأخذوا يكررون مقولات محمد باستهزاء وسخرية، وأخذوا يتحدثون عنه، وكأنه قضية قد انتهت.

اما ابو جهل، وعلى طريقته المستنيرة! فقد تبسّم هازئاً وهو يقول:

«ان محمداً يزعم انكم ان تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وان لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعدكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها...»(١).

في هذه الأثناء أتاهم رجل فقال لهم: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً. قال: خيّبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد.

فأطل المتآمرون ورأوا: كلا، فليس سوى محمد نائماً. فَمنْ يمكن ان ينام على فراشه ويتسجى ببردته الخضراء؟ ولما أصبح الصباح وفجأة يرون علياً وهو ينهض من فراش محمد! انها لخدعة غريبة!

---

(١) ويمضي ابن هشام بالقول: وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ حفنة من التراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم... فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم...» وهذه عادة النبي، كما سنراها في بعض حروبه.

عود على بدء:

لأجل ان تتحقق هذه المهمة «التخلص من قبضة مدينة العدو»، كان لا بد من «الفداء»، ولا بد من «الإمكانيات»، ومن هنا أبقى النبي علياً وابا بكر لتلك الليلة. علي: الفارس الذي يعشق الموت على طريق الحق، ويغفله أمام إرادة الله والنبي، ويلغي الحياة. وابو بكر: الصحابي الشيخ الذي توفر علي تجربة وثروة، وموقع اجتماعي واسري متميز، ولموقعه الاجتماعي والأسري ـ خصوصاً ـ دور فعال. وقد كان كل منهما ـ كما نعلم ـ دليلاً على سلامة الاختيار.

ركب النبي وابو بكر طريق الجنوب بدلاً من المسير على طريق المغرب، الذي يؤدي إلى المدينة. وبما انهما يعلمان ان العدو سيفتش كل مكان للعثور عليهما فقد اختفيا في غارٍ بجبل ثور؛ ليستأنفا المسير حينما ييأس ملاحقوهما من العثور عليهما، ويعودون إلى مكة.

لقد حسب ابو بكر حسابه وهيّأ مستلزمات المهمة من قبل. فعهد لإبنه عبد الله ان يختلط بقريش أثناء النهار ويطّلع على مؤمراتها، ثم يوافيه بها ليلاً. وألزم عامر بن فهيرة «مولى ابو بكر» ان يرعى أغنامه على الطريق الموصل بين مكة وغار ثور، ليخفي آثار أقدام عبد الله، وأسماء التي كانت تأتيهما بالطعام ليلاً. وقد كان لأبي بكر بعيران وضعهم عند عبد الله بن ارقط المشرك الذي لا يشك فيه، وطلب منه ان يرعاهما في الصحراء، فيأتي بهما

حيث ميعاد الحركة.

جعلوا لِمَنْ يقبض على الهاربين جائزة «مائة ناقة». وقد دفع هذا الإغراء، مضافاً إلى أعداء النبي الألداء، الكثير من الأوباش والرجال للانتشار في أرجاء الصحراء للتفتيش عن النبي.

كان ابو بكر قلقاً، وفجأةً سمع أصداء لأصوات عدّة تقترب باتجاه الغار، فاضطرب حزناً، وكان يحسب انهم لو ألقوا نظرة نحو أسفل أقدامهم فسيرونهما. اما النبي وعلى عادته واجهه باطمئنان وحب قائلاً: لا تحزن ان الله معنا.

هدأت فورة القوم في اليوم الثالث، وأقلع المفتشون عن البحث. فأضحى الجميع في مكة يلهج باليأس. وابو جهل الذي احترق غضباً؛ فقد هجم على دار ابي بكر، وطرق الباب، فخرجت له أسماء بنت ابي بكر. فقال لها: اين أبوكِ؟ قالت: لا أدري والله. فحمل ابو جهل على أسماء بلطمة على خدها انفرط معها قرطها.

أمن الطريق، وأتى عبد الله بن أرقط ببعيري ابي بكر. على ان يركب النبي بعيراً، ويركب عبد الله وخلفه ابو بكر على بعير آخر. وقد كانت لحظةً حساسة، مليئة بالأخطار، ولكن كان يبدو ان هناك أمراً طارئاً أهم من الحركة، أشغل النبي. التفت إلى ابي بكر، وقال: اني لا أركب بعيراً ليس لي. فقال له ابو بكر: فهي لك يا رسول الله بأبي انت وأمي. قال: لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، قال: قد أخذتها به؛ قال: هي لك يا

رسول الله. فركبا وانطلق النبي ليتم عملية الهجرة. أجل، فالهجرة ليست عملاً جزئياً، بل الهجرة هجر كل رابطة! المهاجر اقليم مستقل «انسان لذاته»[١]، انسان بنفسه. فهو وايمانه في جبهة والعالم كله في جبهة اخرى. بدأ التاريخ، وتحركت القافلة الثنائية مع دليل واحد[٢]. مستقبل كبير يرقب هذا المهاجر الذي يسير تحت ظل شمس الصحراء الملتهبة، وامبراطوريتا العالم الكبيرتان تراقبان من صوبي العالم هذا الهارب الفرد الذي يطوي الأرض في ستر الليل. يركبان الطريق ليلاً وقسماً من النهار، حتى إذا قامت الشمس وأخذت تحرق الرؤوس احتميا إلى ظل حجر ليستريحا، وأحياناً لا يجدان فيستظلان بظل البعيرين.

اما المدينة فالأنصار والمهاجرون يهرعون كل يوم بعد صلاة الصبح خارج المدينة، يرقبون الطريق، ويظلون منتظرين حتى بعد الظهيرة. فهؤلاء الذين لم يروا نبيهم بعد، تضطرب قلوبهم لرؤيته، وهم أكثر شوقاً واضطراباً.

في قباء:

الشمس في منتصف النهار، وقد عاد المنتظرون إلى بيوتهم يائسين من قدوم صاحبهم هذا اليوم... وفجأةً ينادي يهودي: يا بني قَيْلَة[٣] هذا جدكم قد جاء! هرع الناس من بيوتهم، وقد كان

---

(١) اسم كتاب لـ «اريك فروم».

(٢) قال بعضهم ان الدليلين جاءا معاً، راعي الأغنام، وراعي البعيرين.

(٣) قَيْلَة: اسم جدة الأنصار.

النبي ورفيق سفره، واقفين تحت ظل نخلة. فتجمهرت الناس حوله كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، يهوداً ومسلمين. . . ولم يميز أغلبهم النبي من ابي بكر. وحينما انحسر ظل النخلة، اظلّ ابو بكر النبي بردائه، فعرفوه[١].

أقام النبي في دار لرجل أعزب اتخذها المهاجرون العازبون مركزاً لإقامتهم وهي دار «كلثوم بن هدم» وذهب ابو بكر لدار خُبيب ابن اساف أو خارجة ابن زيد.

امتدت مدة اقامة النبي في قباء أربعة أيام «من يوم الإثنين حتى الخميس»[٢]، وبنى مسجد قباء المعروف باقتراح من عمّار ابن ياسر. وكان هذا المسجد أول مسجد بُني في الإسلام، ووضع النبي بنفسه أول حجر من أحجار قبلة المسجد وتبعه ابو بكر، ثم شرع الآخرون في العمل.

في تلك الأثناء، حيث كان المسلمون يلتهبون سعياً وحباً، وكانت طلعاتهم تضج بومضات الأمل الكبير، كان هناك شاب يبلغ الثانية والعشرين عاماً، يطوي بمفرده الصحراء. فبعد ثلاثة ايام من خروج النبي، وبعد ذلك المشهد المحير من الفداء واليقظة، انهى مهام النبي في مكة، ثم تركها على عجل، وأخذ يقطع البيداء ماشياً.

---

(١) يرى البعض ان أبا بكر عمد لهذا الفعل لكي يعرّف الناس بالنبيّ.

(٢) يعتقد البعض أن مدة إقامة النبي في قباء امتدت أكثر من ذلك، حيث ان علياً تحرك من مكة بعد ثلاثة أيام من حركة النبي. واجتاز الطريق بين مكة والمدينة خلال أسبوعين ثم التقى بالنبي في قباء.

ماشياً؟ أجل؛ فهو الفتى الوترُ، الذي عزَّ على الإنسانية في عمرها الطويل ان تتوفر على رأسمال مثله، هو الفرد الذي أعطى للتاريخ معنىً، ومنحه حساً، وأضفى عليه جمالاً.

نعم؛ لولاه ولولا عدة مثله لكان التاريخ حكاية باردة وقصة سخيفة فارغة! فوليد الكعبة الطاهر، وربيب الوحي العزيز، ورائد الحرية والعدالة والتقوى وسيد الكلام والسيف لا يمتلك الآن بعيراً يقطع عليه الصحراء المخيفة المحرقة بين مكة ويثرب.

احتزم سيفاً، وطأطأ رأسه، غارقاً بالتفكير في المستقبل، وهو يشتعل ايماناً. يطوي البيداء ليلاً ونصفاً من النهار، ويركن إلى الراحة في زاوية النهار حينما تحتدم نيران الظهيرة لهباً. فيصل قباء بعد خمسة عشر يوماً من انطلاقه من مكة، ويقيم مع النبي في دار كلثوم بن هدم.

أقام علي في قباء ليلةً أو ليلتين، ونُقلت هنا خاطرة تلفت النظر:

كانت بُقباء امرأة لا زوج لها، مسلمة، قال: فرأيت انساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها. فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه فتأخذه منه.

قال: فاستربتُ بشأنه؛ فقلت لها: يا أمة الله... مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة. فتخرجين اليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وانت امرأة مسلمة لا زوج لكِ؟!

قالت: هذا سهل بن حُنيف بن واهب؛ قد عرف اني امرأة لا

أحد لي، فاذا أمسى الليل عدا على أوثان قومه فكسّرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا.

الدخول في المدينة:

ترك النبي يوم الجمعة «قباء» متوجهاً صوب المدينة، فدخلها راكباً ناقته، وجماهير المهاجرين والأنصار وحتى اليهود ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ تعدو خلف الناقة، وينشد الأطفال والنساء أناشيد البهجة، بينما كانت العيون المترقبة المشتاقة والمتطلعة مشدودة لطلعة الراكب الغريب الذي هجر قومه قادماً لهذه المدينة، فقد كانت هناك الكثير من الأفكار في العقول، وكانت القلوب تخفق بأشكال مختلفة!

شرع الراكب بعبور أزقة المدينة وضواحيها، الا ان الرجل أفلت زمام ناقته وتركها تسير حيث أُريد لها. انه لعمل عظيم! فزمام الناقة بيد الغيب الذي يرعى مصير مستقبل العالم.

مرَّ الراكب على حيّ بني سالم بن عوف فأتاه عِتْبَان بن مالك وعباس بن عبادة، وأخذا بزمام الناقة: وقالا: يا رسول الله؛ أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، فقال بحسم: خلّوا سبيلها، فانها مأمورة.

فانطلقت حتى إذا وصلت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فأخذوا بزمام ناقته، وقالوا: يا رسول الله هلمّ الينا، مع العدد والعدة والمنعة؛ قال:

خلّوا سبيلها فانها مأمورة، فخلّوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضها سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فأخذوا بزمام الناقة وقالوا: يا رسول الله، هلمّ الينا مع العدد والعدة والمنعة؛ قال: خلّوا سبيلها؛ فانها مأمورة، فخلّوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا وصلت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضها سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج فأخذوا بزمام الناقة وقالوا: يا رسول الله هلمّ الينا مع العدد والعدة والمنعة، قال: خلّوا سبيلها؛ فانها مأمورة، فخلّوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النجار، وهم أخوال النبي ـ فأم عبد المطلب منهم ـ اعترضه سليط بن قيس، وابو سليط، في رجال من بني عدي بن النجار، فقالوا: يا رسول الله، هلمّ إلى أخوالك، مع العدد والعدة والمنعة، قال: خلّوا سبيلها، فانها مأمورة، فخلّوا سبيلها. فانطلقت تكمل مسيرها، ولا أحد يدري اين ستقف الناقة، ولكن الكلّ يدركون ان الرجل ـ الذي سيضع حجر الأساس لبناء نظام عظيم وسيمتد سلطانه لأرض قيصر وكسرى ـ لن يطمع بأبهة السلاطين فلا حشم ولا خدم، وسوف لن يطوق نفسه في دائرة عشيرة أو طبقة خاصة.

لقد اجتازت الناقة دور الأُسر المتنفذة في المدينة، دون ان يستجيب الرجل الذي سلب العقول لدعوات زعماء القوم، بل ردّ

كل دعواتهم بحزم، اجل؛ فالرجل ضيف المحرومين.

ولم تستوقفه ايضاً دور أقاربه فردَّ دعوة أخواله بنفس الحزم الذي ردّ به سائر الدعوات. أجل؛ فالجميع لدى الرجل على حد سواء.

لقد التهبت مشاعر الجماهير شوقاً. . . والناقة تواصل سيرها. . . وكلما ابتعدت عن بيوت سادة القوم اقتربت من الجماهير، فحينما اجتازت الناقة بيوت عدي بن النجار أدرك الجميع ان الراكب لهم، وهو قاصدهم، وهم مضيفوه.

ثم أضحت كل خطوة من خطوات الناقة تعني اقتراباً من الجماهير المحرومة في يثرب. اضطربت الجماهير الفقيرة المحرومة - نساءً وأطفالاً ورجالاً - فرحاً وفخراً، بعد ان كان الفخر لم ير موقعاً في سيماهم اطلاقاً. هجم سيل جماهير المدينة على الناقة وراكبها الوادع - الذي يشع جبينه بريق فكر عميق وقرار عظيم - هجوماً عارماً وكأن الناقة سفينة تبحر وسط أمواج هائجة.

أنشدت عيون الأطفال، والنساء والشباب، الذين تلتهب أرواحهم بمشاعل الإيمان والثورة، نحو الرجل الذي يعتلي ناقته، وكأنه سفير جاء من عالم آخر. وتنعكس صورة الراكب على أستار الدموع، فتهتز وتتشتت ثم تزول. فيبحثون عنها ثانية بين أمواج الدموع فلا يجدونها.

وفجأة تتضح الصورة، لكنها تهتزّ مرة أخرى وتتشتت ثم تزول. . . وهكذا.

وفجأة تنكشف أمواج الجماهير التي كانت تعدو خلف القافلة عبر أزقة المدينة، ويقف السيل وتتسمّر الأقدام بشكل مذهل. . . والكل يسأل: ما الذي جرى؟! لقد بركت الناقة. ولكن اين؟ في أرض نمت فيها عدة نخيلات. . . وهنا كانت نقطة نهاية سير الناقة.

هرع ابو أيوب الذي كان بيته بجوار هذه الأرض نحو النبي وحمل راحلته إلى بيته. تساءل النبي: لمن تعود قطعة الأرض هذه؟؛ فأجابه معاذ بن عفراء: انها تعود لسهل وسهيل يتيمي رافع بن عمر وهما عندي وسأرضيهما كي يبيعانها.

المسجد:

أصدر النبي أمراً ببناء مسجد في تلك البقعة. . . وهذا هو العمل الأول؛ يعني: ان المسجد هو حجر الأساس في بناء النظام الذي يزمع على اقامته.

المسجد بيت الله أم انه بيت الناس، وأي فرق بينهما؟

حينما يكون الحديث عن المجتمع والحياة الإنسانية في لغة القرآن والإسلام تضحى كلمة «الناس» وكلمة «الله» مصطلحين يمكن استبدال أحدهما بالآخر، ولا يمكن ذلك بتاتاً عندما يكون الحديث عن: (وفي سبيل الله، الملك لله والأرض لله. . .) ولا يقتصر الأمر على المسجد فالكعبة هي أيضاً بيت الناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ. . .﴾[١].

(١) سورة آل عمران/ ٩٦.

ابتدأ مشروع بناء المسجد دون تردد، والنبي بنفسه شارك في العمل، وليست مشاركة صورية لتشجيع الجماهير أو كسب حبها، بل شارك بوصفه واحداً من عمال البناء الاعتياديين. . . كان يحفر، ويحمل التراب، ويصنع الطين، والمهاجرون والأنصار يبذلون الجهد، والأمل والإيمان يملأ نفوسهم. كانوا على وعي بما يصنعون، يحملون الحجر والطين وينشدون الرجز شوقاً. الرجز! لأنهم يعلمون ايَّ حربٍ كبرى شرعوا بها.

ارتفعت الجدران بسرعة، واولئك الرجال العظام ـ الذين يضعون حينئذٍ الحجر الأساس لحضارة انسانية عظمى ـ يرتجزون:

لَئِن قعدنا والنبي يعمل فذاك منّا العمل المضلّل

وكانوا يكررون البيت التالي بشكل أكثر:

لا عيش الاّ عيش الآخرة اللّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وقد كان النبي يعمد إلى تغيير البيت، وهو يعمل، فيقول:

لا عيش الاّ عيش الآخرة اللهم ارحم المهاجرين والأنصار

الكل يعمل بحماس، وكل واحد منهم يقول شيئاً ما، وفجأة دخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله، قتلوني، يحملون عليَّ ما لا يحملون! فانعطف عليه النبي برأفة وحنان، وأخذ ينفض شعره الجعد بيده، وهو يقول: «ويح بن سمية! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما تقتلك الفئة الباغية».

فهدأ عمّار، وخفض رأسه، ثم أخذ يبتسم بسمة الرضا.

عمّار بن سُمية السوداء، وبن ياسر، حيث استشهدا صامدين تحت التعذيب الوحشي الذي مارسه ابو جهل عليهما دون ان يقولا ما يسخط الله.

ورث عمّار الصفاء الإنساني من أمّه السوداء، وورث الحدّة والحمية العربية من ابيه، وقد هذّب الإسلام هذه الخصلة القومية تهذيباً جميلاً ولطيفاً ـ لقد قاد عمّار الهائجين ضد عثمان. وحينما كانت حرب صفين أقعدته الشيخوخة عن القتال، لكنه سعى للإشتراك في الحرب، وخاض غمارها حتى القتل. وقد كان جيش معاوية يغفل عمّاراً ويمرّ عليه مرَّ الكرام، لأن الأوامر قد صدرت بتجنب الحاق الأذى به. لكنه كان لجوجاً في ان يموت؛ لأجل ان يحطم معنوية جيش معاوية ويزلزله بقتله.

في ذلك الوقت، حيث كان الكل يعمل بحماس، ويرتجز، كان علي يرتجز بالشعر التالي:

لا يستوي من يعمرُ المساجدا   يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا

تلقى عمّار هذا الشعر من فم علي، وأخذ يكرر الارتجاز به، فلما أكثر، ظنّ عثمان ـ حيث كان واقفاً في زاوية قريبة وبيده عصا ـ ان عماراً يُعرِّض به. فتقدم نحوه غاضباً وقال: قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا بن سُمية، والله اني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك. ولما بلغ الخبر النبي احتدم غضباً، وقال: «ما لهم ولعمّار؟! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه

إلى النار، ان عمّاراً جلدة ما بين عيني وأنفي». أجل، فعمار أول من بنى مسجداً في الإسلام، فهو الذي اقترح بناء مسجد «قباء»، وهو الذي جمع أحجاره، فبعدما وضع النبي حجر الأساس، أكمل عمار البناء[١].

وبعد ان تمّ بناء المسجد، بُدء في بناء بيت النبي[٢]. فبنوا له بيتاً مجاوراً للمسجد حسب أمره، بحيث يُعدّ بيته جزءً من بناء المسجد، يعني: ان زعيم النظام الجديد يسكن في بيت الناس أو بيت الله.

وأصدر أمراً بان تكون أبواب البيت من داخل المسجد، يعني: ان مَنْ يريد لقاءه عليه ان يمر ببيت الناس أو بيت الله اي: ان باب بيته لا يفتح الاّ في وجه الجماهير.

كما بنوا لكل واحدة من نسائه حجرة، بنوا بعضها من جريد مطين بالطين، وسقفها جريد، والبعض الآخر من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض مسقوفة بالجريد. وكانت أبواب الدار من خشب عرعر، وليس لأبوابه حلق تطرق بها. بل كانت تطرق بالأظافر. وكان سريره خشيبات مشدودة بالليف[٣].

---

(١) العروض الآنف ـ سيرة ابن هشام، المجلد الأول، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.
(٢) أُلحق الدار بأمر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي بالمسجد. وحينما وصل المدينة حكم عبد الملك وخربت بيوت النبي، ضجت المدينة بالبكاء ضجيجها يوم وفاة النبي.
(٣) بيع سرير النبي أيام الحكم الأموي، فاشتراه رجل بأربعة آلاف درهم.

هكذا كان يعيش رجل هزّ حديثه النفوس وزلزل سيفه العالم. الرجل الذي وسم نهج حياته ـ في جواب سؤال علي ـ بألوان جميلة ومثيرة متعددة لعشاق جمال الروح الإنساني العظيم: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، والخوف رفيقي، والعلم سلاحي، والحلم صاحبي، والتوكل ردائي، والقناعة كنزي، والصدق منزلي، واليقين مأواي، والفقر فخري. . .» الرجل الذي كان يعبىء من المدينة كل يوم جيشاً لغزو قبيلة من القبائل، الرجل الذي وصفه الإمام جعفر الصادق: «كان رسول الله يجلس جلوس العبد، ويأكل أكل العبد، ويعلم انه العبد».

لقد ملك سلوكه القلوب، وطهر الأرواح من الأدران، وكانت حياته نبعاً فياضاً بالحب والإيمان والمثابرة والأمل والقوة. كان يتعامل بترابية مع أصحابه، وكان يلاطفهم ويمازحهم فكان يطلق على كلٍ منهم كنيةً ما حسب المناسبات.

لقد كان علي يوماً نائماً على تراب المسجد، فأيقظه، وحيث كان التراب يعلو رأسه، كنّاه بأبي تراب. وكنّى ابا العاص بـ «ابو مطيع»، ووجد أخر يصطحب هرةً فقال له «ابو هريرة». . . .

كان يسعى ليبث روحاً ولطفاً وأدباً وحباً في المحيط العربي البدوي الغليظ. سُئل عن أفضل الأعمال في الإسلام؟ فقال: السلام على الصديق والغريب وإطعام الطعام. وتجنب عذاب جهنم

ولو بنصف شق تمرة، والاّ فبإطابة الكلام مع الناس(١).

كان يتكلم بلغة عيسى المسيح بين قومه: احبّوا بعضكم بعضاً فالإسلام دين المحبة، الناس عيال الله وعيبته، وليس هناك أحد أغيرُ من الله، ولا تخاطبوني كما يخاطب المسيحيون أنبياءهم أدعوني فقط: يا عبد الله ورسوله(٢).

مرَّ على جمع من أصحابه فقاموا احتراماً له، فنهاهم عن ذلك، وعن التعامل معه كما تتعامل الأمم الأخرى مع سلاطينها. كان يحب الأطفال حباً شديداً، فكانوا يلتقون حوله أينما وجدوه في الشارع أو في السوق. كما يجده الأيتام والأرامل والمحرومون والمستضعفون سنداً وعوناً لهم.

كان الرجل الذي ألقى الرعب والرهبة في الخارج منبعاً سمحاً للحب والأخوة والعفو داخل بيته وفي مدينته. لقد كان رقيقاً منفتحاً متواضعاً وصديقاً لنسائه إلى الحد الذي غضب «عمر» فيه من جرأة ابنته «زوج النبي» على رسول الله.

لقد سادت المدينة حركة وفعالية مدهشة، توفرت على حياة جديدة، وأسر الإسلام القلوب وأطلق الأرواح شعلاً تلتهب بالحياة، فهيمن على النفوس الاّ يهود يثرب فلم يدخل بيوتهم

(١) ترجمنا النصين عن الفارسية، لعدم عثورنا عليهما... على أن مضامين النصوص موجودة في مضامين النصوص الأخرى... «المترجم»

(٢) نفس المصدر السابق.

الإسلام الذي ما طرق باباً الا وفتحت أمامه مصراعيه!

ألقى النبي أول خطبة خطبها. . . فبعد ان حمد الله وأثنى عليه قال:

«اما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم، تَعْلَمُنَّ والله ليصعقنّ أحدكم، ثم ليَدَعنّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتِك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً وافضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع ان يقي وجهه من النار ولو بشقٍ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفي الأسبوع الأول من دخول النبي المدينة لم يبقَ بيت من بيوت الأنصار الاّ أسلم أهله الا حي من الأوس أقاموا على شركهم.

ثم خطب النبي في الناس مرّة أخرى فقال:

«إنّ الحمد لله أحمده واستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له. إنّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، انه

أحسن الحديث وأبلغه. أحبوا ما أحب الله، احبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تَغشُ عنه قلوبكم، فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى، قد سماه الله خيرته من الأعمال، مُصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقائه، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابّوا بروح الله بينكم، ان الله يغضب ان يُنكَث عهدُه، والسلام عليكم».

ورغم ان النبي سفير الهي مكلف بأداء رسالة السماء، الا انه كان يمارس نشاطه كمفكر سليم الرؤية. فهو يعلم ان بغية البدء بأي مشروع اجتماعي، وبغية النهوض بثورة تغيير جذري سياسياً وعقائدياً واجتماعياً وأخلاقياً لا بد من معرفة طبيعة المجتمع الذي يشكل ساحة عمله؛ وتم البدء بالعمل مع الأخذ بنظر الإعتبار طبيعة الواقع الاجتماعي القائم وشروطه النفسية والاقتصادية والسياسية. لقد كان يعرف يثرب جيداً، المدينة التي تشكل قبيلتان عربيتان «الأوس ـ الخزرج» العمود الفقري لمجتمعها، وفي ضوء السنن القبلية يتجذر الخصام والتنافس بين هاتين القبيلتين، تعيش إلى جانب هاتين القبيلتين ثلاث طوائف من اليهود: بنو قينقاع، بنو النضير، وبنو قريظة؛ وكانت الطوائف اليهودية تسيطر على اقتصاد المدينة، فكان الفن والصناعة والعمل والمال والسوق وأراضي النخيل الخصبة في قبضتهم، حيث كانوا أكثر تحضراً من العرب آنئذٍ، وأكثر وعياً، خدّاعين، لا يألون جهداً في الاحتيال. فقد أتاح

لهم انتماؤهم واطلاعهم على الديانة اليهودية امكانية ان يكونوا أقرب وأنفع أصحاب للنبي، أو أخطر وأقدر أعداء، وكان النبي يدرك ذلك جيداً، فسعى جاهداً لكسبهم والإفادة منهم.

انتهت مرحلة النضال الفردي بالنسبة للنبي، وبدأ في أداء رسالته العامة، حيث تجمع حوله آنذاك الرعيل الأول ممن تربى في أحضان رسالته، فحصل على معقل للشروع في نضاله الاجتماعي، فكان عليه ان يعمل:

وكان عمله الأول ان يدوّن (اعلاناً أساسياً) تقوم على هديه حياة المجتمع البشري انطلاقاً من رسالة الإسلام؛ بغية تحديد الحقوق الفردية والاجتماعية، وحقوق الطبقات والقطاعات الاجتماعية والأقليات، وتشخيص السياسة الخارجية والداخلية لنظام الحكم الجديد:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتاب من محمد بن عبد الله النبي، نبي المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، . . . . وان لا يخالف مؤمن مولى مؤمن

دونه، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وان من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وان سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الاّ على سواء وعدل بينهم، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وان المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وانه من اغتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فانه فرد به الا ان يرضى ولي المقتول، وان المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم الاقتتال عليه، وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه، وان من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله والى محمد، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا غير محاربين، وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو إثم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته، وان ليهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة

كأنفسهم، وان بطانة يهود كأنفسهم، وانه لا يخرج منهم أحد الاّ بإذن محمد، وانه لا يتحجز على ثائر جرح، وانه من فتك فبنفسه وأهل بيته الاّ من ظلم. وان الله على ابر هذا، وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه، وان النصر للمظلوم وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا غير محاربين، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وانه لا تجار حرمة الا بإذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله والى محمد رسول الله، وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها، وان بينهم النصر على من دهم يثرب، واذا دعوا إلى أصلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين على كل ناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وان البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلاّ على نفسه، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وان من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم أو اثم، وان الله جار لمن بر واتقى».

بعد هذا الميثاق تمّ تحديد الأساس الحقوقي والسياسي للأمة، لكن القرار السياسي وحده لا يضمن وحدة المجتمع، بل لا

بد من رباط روحي وآصرة معنوية يشدان الأفراد والجماعات والطبقات فيما بينها. ان نبوغ محمد في نهجه العملي السليم يبرز في انه يبني أكثر الأعراف والقواعد الاجتماعية ثوريةً فوق السنن التقليدية المتجذرة في مجتمعه، لتأتي برامجه الإصلاحية والثورية منسجمة مع طبيعة مجتمعه. على النقيض مما صنعه الكثير من المثقفين الآسيويين والافريقيين، الذين تربوا في أحضان اوروبا، فلأنهم لم يفهموا طبيعة مجتمعاتهم؛ بدّدوا مساعي وجهود أجيال وما زالوا يبددونها[١].

«الحلف» أقوى سنة اجتماعية لدى العرب. وهو أي «الحلف» الرباط المحكم الوحيد. الذي يربط القبائل المختلفة فيما بينها ويوحدها.

وحينما ينأى الفرد عن قبيلته لا يمكنه ان يعيش بمفرده، فكان عليه ـ بغية ان يحيا في مجتمع ـ ان يتحالف مع قبيلة من قبائل ذلك المجتمع. وقد كانت الأحلاف في مكة تتم بالنحو التالي: يأتي طرفا الحلف إلى الكعبة فيقفان امام الأوثان، ثم يمد أحدهما يده ويضع الآخر يده عليها، ويُشهِدان الأوثان على هذا العهد. . . وبذلك يقترب الغريبان، وتحصل بينهما اخوة أكيدة. والمتحالفان في المجتمع القبلي مسؤولان عن حفظ حقوق بعضهما، والاشتراك

(١) وهذه أهم قضية مطروحة في علم الاجتماع السياسي المعاصر، خصوصاً لدى مفكري وقادة الشعوب المتخلفة التي تسعى لبناء ذاتها، الذين يفكرون بعمق في هذا الموضوع، وحيث يفترقون عن أسلافهم في القرن التاسع عشر.

في الحياة الخاصة بينهما.

يأخذ النبي هذه السنّة الاجتماعية القوية المتجذرة، وينفخ فيها روحاً ويبعث بها معنىً ثورياً.

وبذلك تحفظ السنة التقليدية «الحلف»، ولكن يحل الميثاق العقيدي محل الميثاق القبلي، وبدل اليد الأخرى، تكون يد الله فوق الأيدي، والنص القرآني ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ الذي نستنبط منه اليوم معنىً فلسفياً عاماً، كان مشيراً إلى هذه السنة الاجتماعية الشاخصة في العيان.

وفي هذا الضوء يضحى أبناء المجتمع الذين تعاهدوا وتحالفوا مع الله متعاهدين متحالفين فيما بينهم، ويضحي «الأخوة» التي كانت تنشأ من التبني، والتي تخلق علاقة في غاية الإحكام ذات شكل جديد، وتصبح الأخوة قائمة على أساس روح أكثر معنوية وطُهراً.

لقد كان الفاصل القبلي والاجتماعي بين المهاجرين والأنصار كبيراً، وكان الرهان الوحيد لليهود والمنافقين من أجل تشتيت وحدة المجتمع المدني هو: زرع الفرقة والاختلاف بين هذين الجناحين. فبادر النبي في أوائل أيام دخوله المدينة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فأمر ان يرتبط كل مهاجر مع انصاري بعقد أخوة. واستثنى من ذلك أخاه، فقد اختار لأخوته شخصياً علي بن ابي طالب مع انهما مهاجران.

نضجت أرضية العمل، فقد استطاع محمد بسرعة ان يحول المدينة إلى معقل اجتماعي وعسكري وديني محكم. فابتدأ العمل نحو الهدف: إقامة نظام سياسي مقتدر في شبه الجزيرة يقوم على أساس الإسلام. لكي تتحول الجزيرة إلى منطلق لمد نفوذ الإسلام السياسي، إلى سائر أرجاء العالم، كما أضحت المدينة معقلاً لقوة الجزيرة سياسياً ومعنوياً.

ابتدأت حياة محمد المجهدة الحافلة بالمشكلات... حيث أخذ المبلغون، والجماعات العسكرية الصغيرة والكبيرة والوفود السياسية والسفراء، يتوالون على الخروج من باب المدينة، ثم العودة اليها.

وابتدأت المعارك!

عشر سنين
من الحياة المدنية

«عشر سنين من الحياة المدنية»

السنة الأولى من الهجرة:

الشهر السابع: بعث النبي حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً إلى سيف البحر فلقي ابا جهل بن هشام في ثلاث مائة راكب من اهل مكة، فحجز بينهم مَجْديّ بن عمرو الجهني، فانصرف الفريقان، ولم يكن بينهما قتال.

الشهر الثامن: بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين فلقي جمعاً عظيماً من قريش، ولم يكن بينهم قتال، الا ان سعد بن ابي وقاص رمى يومئذٍ بسهم فكان اول سهم رُمي به في الإسلام[١].

الشهر التاسع: بعث سعد بن ابي وقاص في ثمانية أو عشرين أو ستين مهاجراً ولم يلق كيداً فرجع سالماً.

---

(١) يرى ابن هشام ان سرية عبيدة هي اول سرية عقد لواءها في الإسلام، وسرية حمزة هي الثانية، وهناك رأي آخر ـ يبدو انه الأسلم ـ يرى ان كلا السريتين عقد لواءهما في وقتٍ واحد.

الشهر الثاني عشر: غزى النبي اول غزواته وهي غزوة الأبواء[١] ـ وترك على المدينة «سعد بن عبادة» ـ يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر فعاهدته بنو ضمرة؛ ولم يلق قريشاً.

السنة الثانية من الهجرة:

غزوة سفوان أو «بدر الأولى»: أغار كُريز بن جابر الفهري على أطراف المدينة، وقد عدَّ النبي هذه السرقة عدواناً سياسياً بحكم العلاقة التي تربط المغير بقريش، فخرج النبي في طلبه حتى بلغ وادي سفوان من ناحية بدر وفاته كريز ولم يدركه. وقد اعتبر بعض المؤرخين خروج النبي غزوة بدر الأولى.

الشهر الرابع: بعث النبي عبد الله بن جحش، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره فيه.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فاذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها.

فمرت بهم قافلة من قريش فعرفوهم ـ ولأول مرة تواجه جماعة مسلحة من المسلمين العدو، ومع ان الشهر كان من

---

(١) الأبواء: قرية تبعد عن الجحفة من جهة المدينة ٢٣ ميلاً. وتطلق الغزوة على الحروب التي حضرها النبي شخصياً، والسرية على الحروب التي لم يحضرها النبي.

الأشهر الحرم الا ان المسلمين خشوا دخول القافلة مكة وإخبار قريش بهم فوقوعهم في الفخ. ومن هنا اضطروا تصويب سهم لرئيس القافلة ـ وكان الرامي واقد بن عبد الله التميمي، وهو أول رامٍ في الإسلام ـ فقتله وأسروا رجلين آخرين حملوهما معهم إلى المدينة.

ورغم ان هذه السرية أول سرية مجاهدة تقاتل العدو فتنتصر عليه وترجع بالغنائم والأسرى الاّ ان هتك حرمة الشهر الحرام أثار غضب المسلمين فواجهت المدينة السرية العائدة مواجهة باردة.

وقد أثارت قريش واليهود ضجة كبيرة وقالوا ان محمداً استحل القتال في الشهر الحرام، فأجاب المسلمون قريشاً بأن عبد الله حسب الشهر ليس برجب. وقد سُقط في أيدي عبد الله وأصحابه، وتسلط عليهم خوف عظيم من غضب الله... حتى نزل بهم الوحي. فأقرّ حرمة القتال في الأشهر الحرم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾. لكنه أجاب قريش في تكملة الآية: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ...﴾[١].

وذكر السرية وأصحابها بخير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة البقرة ٢١٨.

الشهر السادس: تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

غزوة بدر: تعود من الشام قافلة قريش الكبرى التي افلتت من يد النبي، حيث نصب لها كميناً في العُشيرة وهي في طريقها إلى الشام. ارسل النبي سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله بغية الاستطلاع وكشف العدو، لكنه لم ينتظر عودتهما، بل أصدر أمراً بتجهيز الجيش والحركة.

تحرك المسلمون صوب القافلة مشاةً وركباناً، وكان عددهم ٣١٣ مقاتلاً وبحوزتهم ٧٠ بعيراً، يمتطي كل بعير جمع منهم، وقد ركب محمد وعلي ومرثد بن ابي مرثد الغنوي على بعير واحد.

سبق ابو سفيان قافلته ليصل إلى عين الماء «بدر»، ليستطلع ويتأكد من أمن الطريق. فلقيه رجل قرب ماء بدر، وقال له: ان راكبين قدما إلى هنا، ولم يمكثا الاّ لحظات، ثم أقفلا راجعين. وقد عرف ابو سفيان من التمر المخلوط ببعرات الإبل ان التمر تمر يثرب؛ اذن فالرجلان عينان لمحمد. فانحرف بمسير قافلته على عجل، وركب طريق الساحل.

لقد كان الزمن حساساً، وكان امتحان عسير للمسلمين؛ فقد عرفوا ان ابا سفيان غيَّر مسير القافلة، وان جيشاً كبيراً خرج من مكة متوجهاً صوبهم! فماذا يفعلون؟ يقاتلون، ام يرجعون إلى المدينة؟! وكيف يرجعون إلى المدينة بخفيّ حنين؟ ماذا سيقول المنافقون واليهود في المدينة؟ واين ستذهب مساعي وجهود محمد التي حوّلت المسلمين إلى قوة مهيبة في المدينة؟

ثم كيف يجب القتال بجيش خرج من المدينة قاصداً الغنيمة لا الحرب، وكيف تتم بهذا الجيش مواجهة جيش خرج من مكة قاصداً الانتقامَ بألف فارس؟

جلس محمد مع أصحابه يشاورهم، لكنه لم يفكر الاّ في القتال، ويبشر الجميع بالانتصار الحاسم على الخصم دون أي تردد.

القضية المهمة التي كانت تشغل بال النبي آنذاك هي: بيعة العقبة؛ حيث تعهد الأنصار فيها بالدفاع عن حياة محمد فحسب؛ ولذا لم يشترك في السرايا والغزوات حتى ذلك الحين الاّ المهاجرون. فهل سيؤازره الأنصار الذين يعدّون «٢٦٣» رجلاً إلى جانب المهاجرين الذين يعدّون «٧٧» رجلاً؟!

لقد أعلن المهاجرون على لسان ابي بكر وعمر والمقداد استعدادهم للمشاركة في المعركة، ثم سكت الجمع. فقال النبي: «أشيروا عليَّ». فأدرك سعد بن معاذ الأنصاري مراد النبي، وأعلن الاستعداد نيابة عن الأنصار، وقال: «لقد آمنّا بك يا رسول الله وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فأمضي يا نبي الله لما أردت فهو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد، وصل من شئت، وخذ من أموالنا ما أردت، فما أخذته من أموالنا أحبّ الينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لي بها من علم وانّا لأنكره ان

نلقى عدونا غداً، وانّا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منّا بعض ما تقرّ به عينك».

فعلا السرور محيا النبي، وأمر بالحركة. تحركت قافلة الجيش واقترب جيش المشركين من جيش المسلمين. ولدى بعض رجال العسكرين تحفظ على القتال، فالعامة من قريش كانت تشك في جدوى القتال بعد ان نجت قافلة أبا سفيان، وبعد ان كتب لهم بالعودة دون قتال. كما اعترض البعض في جيش محمد بانهم جاؤوا للغنيمة لا للقتال. وقد حمل قريشاً على الحرب ابو جهل ـ الذي يفور حقداً، والذي سعى كثيراً لتعبئة هذا الجيش الذي لم ترَ مكة له مثيلاً ـ وحمل المسلمين عليها الآية: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] فعزم الجيشان على القتال. سار النبي صوب بدر، ونزل إلى جانب الماء. وقد كان الحباب بن منذر خبيراً بطبيعة منطقة القتال، فقال للنبي: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه، ولا نتأخر عنه، ام هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؛ فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال النبي: لقد أشرت بالرأي.

---

(١) سورة الأنفال/ ٧ .

ابتدأت المعركة في سحر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان. فقال سعد بن معاذ: يا نبي الله، الا نبني لك عريشاً، تكون فيه، ويُعدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوك كان ذلك ما أحببنا، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله! ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك. . . .

بُني للنبي عريش يستظل به، ودخل معه ابو بكر العريش. أصدر محمد تعاليمه لجيشه بعدم الهجوم قبل صدور الأمر به، وأخذ ينظم صفوف العسكر بسهم في يده. فمرّ على «سواد بن غزيّة» وهو متقدم على الصف، فضربه على بطنه بالسهم الذي بيده، وقال له: استو يا سواد. فاعترض عليه سواد وقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل.

فكشف النبي عن بطنه وقال له: استقد. فاضطرب سواد، حيث يدعوه محمد، وهو في قلب أعسر حروبه التي ستقرر مصيره ومستقبل رسالته ومصير أتباعه، إلى القصاص، فاستبدل سواد القصاص بقبلة!

أصابت السهام رجلين من المسلمين، فقُتِلا. هناك نادى النبي: «لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، الاّ أدخله الله الجنة».

فقال عمير بن الحمام، وفي يده تمرات يأكلها: بخٍ بخٍ، فما بيني وبين ان أدخل الجنة الآن يقتلني هؤلاء. ثم قذفَ التِمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل حتى قُتِل.

وخاطب عوف بن الحارث، وقد ثارت حميته، النبي: يا رسول الله ما يُضحك الرب من عبده، قال: غمسه يده في العدو حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه وحمل سيفه وخاض غمرات الحرب يقاتل حتى قُتِل.

وبغتةً خرج الأسود المخزومي من معسكر قريش، وقد كان شرساً شريراً، وبينا هو يسرع صوب جيش محمد أخذ يصيح: «أعاهد الله لأشربنَ من حوضهم، أو لأهد منّه، أو لأموتنّ دونه». فهجم عليه الحمزة بن عبد المطلب، ودون وقفه، قطع ساقه، فوقع في الحوض، ثم أتبعه حمزة بضربة سيف ثانية حتى قتله.

التحم الجيشان، وأخذ الأبطال بالبراز. فطلع لميدان البراز عُتبة بن ربيعة ـ الذي كان معارضاً للحرب قبل بدئها ـ والى جانبيه اخوه شيبة وابنه الوليد. فهجم عليهم فتية من الأنصار فيهم ابنا الحارث وأمهما «عفراء». فناشدهم عتبة بكبرياء وتبختر: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار.

فصاح عُتبة: يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا.

فقال محمد: قُم يا عبيدة بن الحارث! قم يا حمزة! قم يا علي.

فصاح عُتبة: من انتم؟ فقال عبيدة: عبيدة بن الحارث؛ وقال حمزة: حمزة بن عبد المطلب وقال علي: علي بن ابي طالب.

فقال عتبة متبختراً: نعم أكفاء كرام. فبارز عبيدة، وكان أكبرهم سناً، عُتبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة، وحمزة شيبة بن ربيعة، اما علي وحمزة فلم يمهلا خصمهما أن قتلاهما. واما عبيدة فقد ضرب خصمه وضربه الخصم ايضاً، فكر حمزة وعلي لإنقاذ صاحبهما الذي جرح بشدة فقتلا عتبة وحملا صاحبهما إلى معسكر النبي، وأتوا به إلى النبي، فقال عبيدة للنبي: ألست شهيداً؟

فقال النبي: بلى. فقال عبيدة: لو كان ابو طالب حياً لعلم اني أحق بما قال منه حيث يقول:

ونُسلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حوله ونَذْهَلَ عن أبنائِنا والحَلائِلِ

لقد استطاع محمد ان يثير عزائم أنصاره القليلين في مواجهة جيش مجهز بعدّة وعدد، يبلغ ثلاثة أضعاف المسلمين ـ من خلال خطبه النارية وسلوكه العسكري الذي دلّل على مهارة وقدرة خارقة في القيادة العسكرية ـ إثارةً يخطر معها على ذهن المقاتلين كل شيء الاّ الحياة.

وقد كان جيش العدو مضافاً إلى تفوقه في العدّة والعدد، متفوقاً بشكل كبير في مشاركة الوجوه المشهورة والشخصيات الكبيرة وأعيان العرب المتنفذين. وقد استطاع محمد ـ من خلال آيات الجهاد اللاهبة التي تُغلي دماء المسلمين، وتمنح جماهير

الناس قوة وعظمة ـ ان يسقط هيبة هؤلاء في أعين أصحابه.

غاص المجاهدون في قلب جموع الف فارس من قريش، وألقوا بثقلهم على رجال قريش وأشرافهم، وعلى حد تعبير النبي «أفلاذ كبد مكة»؛ ذلك ان النبي أصدر أمراً بغضّ النظر عن عامة الناس من قريش، لأنّهم اما ان يكونوا مكرهين على القتال واما ان يكونوا أدوات بيد أشراف قريش.

وفي وسط هذا المشهد كان بلال «مؤذن الرسول» يكثر الفر والكر، وكأن اليوم يومه؛ حيث يصطف هذا العبد الحبشي الأسود مع أصحاب الفكر والعقيدة في مواجهة السادة وخصوصاً سيده ومالك رقبته الدنيء بالأمس.

لقد كانت معركة بدر، لدى وجوه المهاجرين حرباً عقائدية، وكانت لدى «بلال» مضافاً لذلك حرباً انتقامية وتحررية أيضاً. حرباً على عبودية وأسر الإنسان، فلم يكن توحيد بلال توحيداً فكرياً وفلسفياً فحسب، بل كان يحسه بكل لحمه وجلده. وقد كان شعار المقاتلين في بدر: «أَحَد أَحَد»، وهو الشعار الذي كان يطلقه بلال تحت تعذيب ابي جهل الوحشي. لقد كمن بلال منذ بدء المعركة لـ «أُمية بن خلف» سيده السابق، وكان ينادي: «يا أنصار الله رأس الكفر امية بن خلف لا نجوت ان نجا». وقد كان عبد الرحمن بن عوف رفيق أُمية في الجاهلية فاستبقى عليه وعلى ابنه أسيراً. لكن «بلالاً» بذل جهداً متواصلاً حتى قتل أُمية وابنه.

أخذت سيوف المسلمين تجندل أبطال قريش الواحد بعد

الآخر، وقد مالت بسرعة كفة المسلمين ـ الذين بعثت فيهم آيات الجهاد المتتالية وخطب وسلوك محمد قوة خارقة للعادة ـ في المعركة.

يئست قريش بعد هبوب الرياح العاتية، وقتل (أبو جهل) بيد «معوذ بن عفراء» وتوالي حملات المسلمين المتصاعدة في شدتها وقسوتها.

ثم أخذت قريش بترك ساحة المعركة فراراً، وأخذ المسلمون بملاحقتهم.

كان النبي قد أصدر أمراً بتجنب قتل العامة وبني هاشم، وخصوصاً العباس وابا البختري. وقد أغضب هذا الأمر «ابو حذيفة» أحد أصحاب النبي المعروفين، فقال: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وأخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس! والله لئن لقيته لألحِمَنّه السيف».

سمع النبي مقالة «ابو حذيفة»، ولم يعبأ بها. الآ ان «ابا حذيفة» أدرك بعد حين ان وصية النبي لم تنطلق من القرابة والدم، بل لأن بني هاشم واسوه خلال ثلاثة عشر عاماً من الإرهاب والتعذيب في مكة، وشاركوا المسلمين في معاناة حصار «شِعب ابي طالب»، ودافعوا عن النبي أمام قريش. فندم على مقالته ندماً شديداً، وأخذ يكرر قوله: «ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، الآ ان تكفِّرها عني الشهادة». فقتل يوم اليمامة شهيداً.

هدأت ساحة المعركة. وزَّع النبي الأسرى بين الأصحاب، وأوصى بحسن معاملتهم.

وقع خلاف حول تقسيم غنائم المعركة، فأخذ النبي الغنائم كلها، ووزّعها على كل المسلمين الذين اشتركوا في المعركة بشكل مباشر أو غير مباشر والذين لم يشتركوا فيها، وبقوا في المدينة يؤدون أدوارهم.

وفي طريق العودة استولى على النبي التفكير بشأن أبناء الأشراف من قريش الذين قتلوا في المعركة؛ حيث أسلم هؤلاء، في مكة، وقد حجزهم آباؤهم بعد صدور أمر الهجرة عن متابعة محمد. لقد كان هؤلاء شباباً مستنيراً لكنهم ضعاف الشخصية ومحافظون، فعلى الرغم من ايمانهم الباطني خضعوا لجو المجتمع العام، ولم يكتفوا بهجر الجهاد والنضال ضد الشرك، بل جاؤوا مع آبائهم إلى «بدر» وهم الآن مقبورون في نفس الحفرة، التي دفن فيها رؤوس الجهل والرجعية.

لقد أحزن مصير هؤلاء التّعس النبي بشدة، فنزلت الآية التالية جواباً له:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١].

---

(١) سورة النساء/ ٩٧.

بلغ الجيش «الاثيل»، فمرّ الأسرى من أمام محمد، واذا بالنضر بن الحارث ـ الشخص الذي لم يترك اية دنيئة ورذالة الاّ واستخدمها مع النبي خلال ثلاثة عشر عاماً ـ فرمقه النبي بنظرة، عرف النضر انها الموت الذي لا خلاص منه. فاستشفع بمصعب بن عمير، وكان رحماً له، فقال له مصعب: «لقد قطع الإسلام العهود» ثم ذكّره بجرائمه وتعذيبه المسلمين.

أما المقداد الذي كان النضر أسيره فقد كان يطمع بمال قومه فيأخذ الفداء، فأمر النبي بقتله؛ فاعترض المقداد قائلاً: أسيري يا رسول الله. فقال النبي: اللّهم اغنِ المقداد من فضلك.

بُدِّل بن ابي سفيان بسعد بن النعمان الذي أسره ابو سفيان وهو في طريقه إلى مكة.

وكان ابو العاص زوج «زينب» بنت النبي أحد الأسرى أيضاً، فأرسلت زينب بقلادة أهدتها اليها أمها خديجة في فدائه. وحينما وقع نظر النبي على القلادة، رقّ لها وقال لأصحابه: «ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها المال الذي أرسلته في فدائه فافعلوا» وكذلك فعلوا.

الاّ ان النبي أخذ مقابل ذلك من «ابي العاص» وعداً بإرسال ابنته زينب إلى المدينة، فوافق ابو العاص، رغم حبه الشديد لزوجته. ثم لحقها إلى المدينة وأسلم. عاد جيش المسلمين لأول مرة من أحرج المعارك، يملؤه النصر والغرور، نعم الغرور؟! فقد حارب الإسلام هذه الصفة السيئة بشدة، فنزلت الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ

إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وما أروع مناسبة هذه الآية خصوصاً وهي توجه الخطاب لشخص النبي، حتى يكون احساس الآخرين بدلالتها عميقاً.

محاولة اغتيال النبي: أرسل صفوان بن أُمية ـ انتقاماً لقتل أخيه «خلف» في معركة بدر ـ عمير بن وهب، وهو أحد أشقياء مكة، إلى المدينة لكي يغتال النبي. الاّ ان خطته انكشفت للملأ؛ فأسلم، وأدخل معه جماعة إلى الإسلام.

مشكلة اليهود وغزوة بني القينقاع: كان محمد يعلم ان مكة بعد بدر سوف لا تكتفي بالعزاء، بل الحرب الانتقامية المقبلة أشد تعقيداً وأكثر صعوبة. ومن هنا كان عليه ان يقضي على كل أسباب الخطر المحدقة به، وبناء قدرته الدفاعية والسياسية.

وقد كان اليهود ـ الذين لم يألوا جهداً في العداء والتآمر ـ ينتشرون في المدينة وأطرافها. ومن المحتمل ان يلعب هؤلاء دور الرتل الخامس ـ على حد تعبير فرانكو الشهير ـ في الهجوم الحتمي المقبل لقريش ، فيوجهوا إلى الإسلام طعنة من الخلف. فكان لا بد من البحث عن مخرج.

كان فتح بدر أمراً ثقيلاً ومزعجاً لليهود، وبذلك أعدّوا الأرضية المناسبة أمام محمد، وأخذوا ـ خلافاً للمعاهدة ـ بالنيل من النبي وسبّ الله ومحمد والدين. وكان من جملة هؤلاء ثلاثة شعراء يهجون النبي ويعتدون على مقدسات المسلمين في أشعارهم، فوقع قتلهم على يد أبناء عشيرتهم. ولم يعد ذلك نقضاً

للمعاهدة القائمة بين المسلمين واليهود، لأن المقتلة من أبناء عمومتهم، فلا يتهم أحد بالقتل وفقاً للسنن القبلية آنذاك.

ولم يمض زمن طويل حتى دخلت امرأة مسلمة سوق الصاغة «وقد كان لليهود» وكان مع المرأة بعض الحلي تريد ان تعرضها للبيع، فجلست عند دكان يهودي، وبينما هي كذلك جاء يهودي من خلفها من حيث لا تعلم فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها. فلما قامت انكشفت عورتها، فضحكوا منها، فصاحت تستغيث بالمسلمين فوثب مسلم وقتل اليهودي، وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه. فهاجت المدينة بأسرها، وهناك تدخل النبي.

وبعد ان ابتدأ يهود بني القيقناع بنقض العهد، أضحى سكوت محمد ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة الوقائع التي حصلت ـ اعترافاً رسمياً بالهزيمة. فأمر النبي بمحاصرة دور اليهود، واستمر الحصار خمسة عشر يوماً. وبعد توسط أو تملق عبد الله بن أُبيّ، عفا محمد عنهم، وأمر باجلائهم جميعاً عن المدينة.

السنة الثالثة من الهجرة:

توجيه الضربة لليهود: كان النبي عازماً على اجتثاث خطر اليهود بشكل كامل. فأصدر أمراً بقتل أية شخصية يهودية يراها المسلمون مؤذية. وقد أدت حالات القتل المتلاحقة ومصير بني قينقاع ـ على وجه الخصوص ـ إلى الرضوخ لمعاهدة مهينة بعد ان نقضوا بوقاحة المعاهدة المشرقة من قبل.

العلاقات الجديدة: في نفس الوقت الذي كان فيه محمد صلّى الله عليه وآله يهيء الأرضية لمواجهة خطر هجوم قريش الانتقامي من الخارج، فقد كان داخلياً يحكِّم علاقته مع ذوي النفوذ عن طريق مصاهرتهم والزواج منهم، حيث كانت هذه العلاقة أقوى الروابط الإجتماعية آنذاك.

غزوة أُحد: وجدت قريش سبيل نجاتها منحصراً في ان تجمع قواها لضربة مركزية، وتنقذ نفسها من أسر محاصرة محمد الاقتصادية. فجهزت ثلاثة آلاف رجلٍ، وخمس عشرة إمرأةً، ومائتي فرس، وثلاثة آلاف بعيرٍ، وسبعمائة درعٍ.

اطلع العباس «عم النبي» سراً محمداً بجزئيات الأمور.

كان النبي يرجح البقاء داخل أسوار المدينة على الخروج إلى ميادين القتال المكشوفة؛ اذ تقاتل العرب أمام مساكنها وتحت نظر نسائها وأطفالها بكل طاقاتهم. مضافاً إلى ان قلاع وأبراج المدينة تتيح للمسلمين امكانات لا يتوفر عليها العدو. والأهم من ذلك ان قتالهم داخل المدينة يجعلهم يفكرون بسلامة أطفالهم ونسائهم فضلاً عن سلامة أنفسهم، وهذا ما يجعلهم أكثر شدة وقوة عند القتال.

دعا محمد المسلمين إلى التجمع في المسجد، وعرض عليهم رأيه في ترجيح البقاء بالمدينة. فخالفه أكثر المسلمين ـ خصوصاً الشباب الثائر ـ الرأي، فدخل بيته، وعاد اليهم لابساً درعه، وتحرك بألف مقاتل صوب «أُحد».

وفي وسط الطريق عاد عبد الله بن أُبَيّ بثلاثمائة من أتباعه فبقي مع محمد سبعمائة مقاتل، منهم مائة دارع، وخمسون رام، ومعهم فرسان.

منع النبي الصبيان من المشاركة في الحرب. وبينا وصل المجاهدون إلى وادي جبل أُحد أصدر النبي أمراً بعدم البدء بالقتال قبل صدور الأمر به.. اختار للرماة موضعاً في أصل الجبل، وأمر قائد الرماة عبد الله بن جبير: «انضح الخيل عنا بالنَّبل، لا يأتونا من خلفنا، ان كانت لنا أو علينا، فأثبت مكانك، لا نؤتينَّ منْ قِبَلك».

ابتدأت المعركة، وتصارع الأبطال. فعرض النبي سيفه وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ أجابه الزبير: انا، فأعرض النبي عنه. ثم كرر النبي وكرر الزبير فأعرض عنه أيضاً، ثم نهض ابو دجانة وقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: ان لا تقتل به مسلماً وان لا تفر من كافر ان تضرب به العدو حتى ينحني، قال: انا آخذه يا رسول الله.

احتدم القتال، وكانت هند والنسوة اللواتي معها يدفعن الرجال دفعاً للقتال، ويطفن حول الصفوف بدفوفهن ويرتجزن:

إِن تُقبِلوا نُعانِق ونفرُشُ النمارِق
او تُدبروا نفارق فراقَ غيرِ وامِق

وكنّ ينادين الرجال باسم طوائفهم، ويذكُرن بقتلى بدر. ويطرقن اسماع المقاتلين بكلمات العار، الشرف، الحمية، الغيرة... بايقاع وغناء مثير للحماس.

عرض حمزة وعلي وابو دجانة مشهداً حياً للشجاعة والقوة والإخلاص، أثار اضطراباً في قريش، وهي تواجه جيشاً يبلغ خمسة أضعافه عدداً. وفي هذه الأثناء كان كل اهتمام النبي منصباً على الحيلولة دون تمركز قوى العدو؛ لكي يسهل تقدم الجيش بتبعثر فلول العدو. احتدمت الضربات على قريش فابتدأ فرارها، فتركت ساحة المعركة «وادي أُحد» وهربت إلى أعلى الجبال. هبّ كثير من المقاتلين ـ بعد ان رأوا هزيمة العدو ـ إلى قلب الوادي يجمعون الغنائم، ونزل الرماة الذين يحرسون المسلمين من الجبل إلى الوادي، ولم يبق منهم على الرغم من مساعي عبد الله بن جبير الاّ عشرة.

تمر على ميدان القتال أدق لحظاته، وهنا يبرز دور نساء قريش، حيث نثرن شعورهن، وشققن جيوبهن، وكشفن عن صدورهن، وأخذن بالعويل والصياح الجنوني حتى ارجعن الجيش الفار إلى الميدان، فانحدر أكثره صوب الوادي. بينا كان خالد بن الوليد قائد خيالة قريش يطوف حول الجبل، فقضى بيسر على عبد الله بن جبير وأصحابه القلائل، ونزل من فوهة الوادي التي بقيت دون مدافع إلى الوادي، وانهال على المسلمين، الذين انهمكوا في جمع الغنائم، بسيفه. وفي هذه الأثناء أغمي على النبي على أثر جراحاته ووقع في حفرة، فصرخ «سراقة» ان النبي قد قتل. فانتشر الخبر في جبهة القتال المضطربة انتشار البرق.

وكان قتل حمزة حدثاً آخر من الأحداث التي قصمت ظهر

المسلمين في هذه المعركة، وحمزة عم النبي وفارسه المخلص الطهور.

هرب جماعة من المسلمين من الوادي إلى صخرة في الجبل، وقال أحدهم: يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل ان يأتوكم فيقتلوكم. فناداهم انس بن النضر: يا قوم ان كان محمد قد قتل ان ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد.

ومر «أنس» على عمر بن الخطاب وطلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله. فقال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله.

وبينما كان انس على يقين بقتل النبي هجم صوب الموت في قلب جيش العدو، ثم لم يرجع.

أما النبي فلم تهزه الخسارة، وفجأة باشر في شنّ هجوم، لا لأجل تحقيق انتصار، بل كردّ فعل مشرف أمام الهزيمة التي لحقت المسلمين. وقريش التي كسبت المعركة لم ترغب المخاطرة ثانيةً، فتركت ميدان القتال في وسط الزغاريد والدبكات وضرب الدفوف.

قلق النبي، واحتمل ان تكون قريش قاصدة الهجوم على المدينة، فبعث علياً خلفهم ليأتِ له بالخبر، فعاد علي مخبراً: انهم يتجهون صوب مكة.

اتجه النبي إلى قتلى المعركة، وبين القتلى كان يبحث بفارغ الصبر عن حمزة، فوجده قد مُثِّل به: شُقّت بطنه، وأخرج كبده.

غضب النبي لذلك وتعهّد: لئن أظهرني الله على قريش لأُمثلن بثلاثين منهم. وتعهّد المسلمون بذلك ايضاً.

لقد هزّ الحدث النبي وتغيرت ملامح وجهه. فنزل عليه التعليم التالي:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(١).

غزوة حمراء الأُسد: في اليوم الثاني من المعركة «السادس عشر من شوال» ارتفع صوت بلال ـ في وسط حالة التردد العام ـ يدعو الناس لمتابعة العدو. فقد عزمت قريش على العودة والهجوم على المدينة لحسم الموقف لصالحها تماماً. فأصدر محمد أمراً بأن يتفرق الجيش ليلاً في بيداء واسعة ويوقد كل واحد ناراً.

وقد كتب ابو سفيان رسالة لمحمد يخبره فيها بعزمه على العودة وحسم الموقف. وصل حامل رسالة ابي سفيان إلى محمد وهو في «حمراء الأسد»، ولما أبلغه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وعلى الرغم من استلام النبي رسالة ابي سفيان الآ انه بقي

---

(١) سورة النحل/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

الاثنين والثلاثاء والأربعاء لكي يُظهر لعدوه انه قد استعدّ بتجهيزات جديدة للدفاع بل جاء لشنّ هجوم. ولما وجدت قريش حضور محمد في اليوم الثاني من انكساره أمراً غير عادي أخذها التردّد في القتال. خصوصاً بعد مقولة صفوان بن امية لأبي سفيان: «ان القوم قد غضبوا ونخشى ان يكون لهم قتال غير الذي كان».

وفي طريق العودة إلى المدينة بعد هذا الحدث غير المتوقع أثر معركة أُحد، أخذ النبي باستعراض قوة الإسلام وإثبات وجوده في المدينة ولدى القبائل التي حولها ولدى قريش. فعاد المسلمون إلى المدينة ـ وجراحات أُحد لم تلتئم بعد ـ وهم يحسّون بنصر واضح.

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد: كان النبي مدركاً ان الآثار السلبية للانكسار في أُحد يجب تلافيها من خلال تضحيات وجهود سياسية وعسكرية أشمل وأقوى. فقد رفع المنافقون في الداخل رؤوسهم، وأخذوا يتحركون بشكل خطير، فانهزت القبائل المتحالفة مع المسلمين، وإذا لم يباشر النبي فعلاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ستصبح المدينة عاجلاً كجريح مصروع في بيداء الحجاز لا مدافع له و تكون طعمة لذيذة لأكلة لحوم البشر من البدو وذئاب قريش وبني كنانة الحاقدة وحلفائهم من العرب واليهود.

استعد بنو أسد على عجل للإغارة على المدينة. فبعث النبي أخاه من الرضاعة ابو سلمة بن عبد الأسد في أول محرم، بمائة وخمسين رجلاً. وأمرهم ان يسيروا ليلاً على غير الجادة، ويختفوا

نهاراً. فيفاجئوا العدو بالإغارة عليه قبل ان يتسنى له الاستنجاد بالقبائل الأخرى... وهكذا فعل ابو سلمة.

وكان ذلك اول انتصار بعد «أُحد»، له آثار ايجابية لدى العرب، فأظهر من جديد ان جماعة محمد يشكلون خطراً هجومياً على العدو، وحصناً دفاعياً للصديق.

السنة الرابعة من الهجرة:

غزوة بني النضير: خلال اربعة عشر يوماً وقعت حادثتان مشؤومتان؛ الأولى في الرجيع «حيث قتل المشركون فيها ثلاثة رجال من المسلمين». والأخرى في بئر معونة «حيث قتل المشركون فيها تسعة وثلاثين رجلاً من المسلمين»، فاهتزّت هيبة المسلمين العسكرية والسياسية؛ وبغية ان تزول الآثار الروحية لهذه النكسة كان لا بد من عمل هجومي، على ان الأفضل ان يكون هذا العمل ذا نتائج حياتية وحسية، مضافاً إلى كونه عملاً اعلامياً.

ولأجل ان يتحقق هذان الأمران التفت محمد مرةً أخرى إلى اليهود؛ اذ عكف اليهود بعد معركة أُحد وحادثتي يوم الرجيع وبئر معونة على الاستخفاف بالمسلمين وأخذوا يقولون: لو كان محمد رسول الله لما خسر في المعارك.

قُتل رجلان من بني عامر، المتحالفين مع المسلمين، فطالب بنو عامر النبي بديّتهما. وقد كان اليهود متحالفين مع بني عامر أيضاً. فطلب النبي من اليهود ان يشاركوه في دفع ديّتهما.

وقد كانت إجابة بني النضير كسباً موفقاً لمحمد سواء أكانت سلبية ام ايجابية؛ حيث اطلع على النوايا الحقيقية لبني النضير، وهو يتلقى ضربات موجعة من عدوه. خرج النبي مع عشرة من أصحابه إلى قلعة بني النضير للمطالبة بالديّة، لكنه عاد إلى المدينة بعد أن التفت إلى أن بني النضير يبيّتون نوايا سيئة له، ويتآمرون على حياته. وقد دفعت المؤامرة النبي ليرسل محمد بن مسلمة إلى بني النضير يأمرهم بالخروج من ديارهم، والابتعاد عن مجاورة النبي، بعد ان همّوا بالغدر.

لم يستجب اليهود لطلب النبي.

فقام محمد بمحاصرة قلعة بني النضير، وبعد حصار وقتال طويلين، استسلم اليهود، وهجروا الديار.

غزوة بدر الثانية: حينما خرج ابو سفيان من أُحد نادى محمداً: ان موعدنا معكم العام القادم في بدر. ولما حلَّ شعبان، أو ذو القعدة «على رواية الواقدي» اتجه النبي إلى الموعد.

ندم ابو سفيان وسط الطريق، وأعاد الجيش إلى مكة، وأطلق أهل مكة على هذا الجيش اسم «جيش السويق».

كما تزوج النبي هذا العام من ام سلمة بنت أمية أرملة ابو سلمة، وأمر زيد بن ثابت: ان يتعلم الكتابة من اليهود، وقال: اني لا آمن ان يبدِّلوا كتابي.

السنة الخامسة من الهجرة:

غزوة دومة الجندل: ان غياب ابي سفيان عن الموعد «بدر»، الذي اقترحه بنفسه واجلاء بني النضير، وتوزيع أملاكهم بين المهاجرين أدى إلى تخفيف الضغط الاقتصادي على المسلمين، وتحسين أوضاعهم بشكل ملموس.

عزم محمد في «ربيع الأول» على غزو دومة الجندل حيث تقع في أقصى الشمال من المدينة. وقد أدى الانتصار في هذه الغزوة إلى بروز قوة المسلمين وقدرتهم في طيّ الصحراء المخيفة، كما أدى إلى بسط نفوذ الإسلام حتى الحدود الشرقية للروم.

غزوة الخندق أو الأحزاب: شكّل اليهود، وبنو وائل، وقريش، وبنو غطفان وحلفاؤهم اتحاداً، ووجهوا جيشاً ـ بلغ عشرة آلاف رجل ـ إلى المدينة.

لقد عبأت هذا الجيش مساعٍ وخطط واسعة ومعقدة رسمها قادة اليهود ـ حي بن أخطب، وابن ابي الحُقيق ـ لكي يجتثوا الإسلام «العدو المشترك لليهود والوثنيين».

خيمت على المدينة ظلال الخوف بشكل لم تشهدها من قبل. لقد انكسر المسلمون في «أُحد» أمام ثلاثة آلاف رجل، فماذا يجب ان يعملوا أمام عشرة آلاف مقاتل؟

بادر النبي إلى العمل، ولم يكن امامه الاّ التحصن داخل المدينة. اقترح «سلمان» حفر خندق حول المدينة، فابتدأ العمل.

وكان العام مجدباً، والمسلمون يعانون من ضيق التموين والجوع، واتحدت عليهم بمساعي اليهود كل قبائل العدو.

كانت مهمة النبي معقدة جداً. فكان عليه ان يُعبّىء البلد الضعيف الذي يتناوشه النفاق الداخلي أمام جيش يبلغ أربعة أضعاف المسلمين، كما كان عليه أيضاً ان يسيطر على الموقف، والنفوس مضطربة قد خارت قواها، وهي تشهد هجوماً جماعياً لا سابق له، فيجعلها على أمل بالنصر، رغم كل القرائن والظروف المادية المحسوسة.

كانت الآيات والكلمات النبوية في هذه الحرب، التي لم يلح في طلعتها أي أمل بالنصر، أكثر حزماً، وادعى للاطمئنان، صيّرت المسلمين آملين بالقوة التي تقف خلف الظروف والشروط الماديّة غير المساعدة، متطلعين لعونها ونصرتها.

كان البرد القارس تلك الأيام يزيد آلام الجوع والقحط، لكن خطاب النبي وسلوكه ـ حيث كان يقترب من الستين، وهو يحفر الأرض معهم في نفس الوقت الذي يشدّ على بطنه فيه حجر المجاعة ـ كانا يملآن نفوس المسلمين ايماناً واخلاصاً.

وقد كان محمد ـ وهو يعمل في حفر الخندق ـ مبادراً لمعونة الجميع، فحينما رأى سلمان الفارسي يصارع حجراً صلداً أسرع اليه، فأخذ المعول من يده وضرب الحجر ثلاث مرات، خرج مع كل ضربة بريق مضيء. فقال سلمان: بأبي انت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وانت تضرب؟ قال: أوقد

رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: نعم. فقال النبي: اما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، واما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، واما الثالثة، فانّ الله فتح عليّ بها المشرق[١].

انتظر جيش ابي سفيان ـ المؤلف من عشرة آلاف رجل، والذي هزّ المدينة، ولم يكن يفكر في شيء سوى جمع الغنائم وأسلوب الإبادة العامّة الذي سيتبعه مع المسلمين ـ النبي في أُحد، وبعد ان وجد الانتظار بلا محصلة انحدر صوب المدينة، وحينما رأى الخندق تسمرت أقدام رجاله.

لم يكن هناك طريق للنفوذ إلى المدينة سوى طريق يبدو معه

---

(١) سيرة ابن هشام، المجلد الثاني، ص ٢١٩.

وقد نقل الطبري هذه القضية مع شيء من الإختلاف: قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار فحفرنا... فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء فكسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا يا سلمان ارق الى رسول الله... فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق فأخذ رسول الله المعول من سلمان فضرب الصخرة... وبرقت منها برقة أضاء ما بين المدينة... فكبّر رسول الله تكبير فتح وكبّر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثانية وبرقت منها برقة... ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برقة... فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط، فالتفت رسول الله الى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قد رأيناك تكبّر فنكبّر ولا نرى شيئاً غير ذلك. قال: صدقتم ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية... أضاءت لي منها قصور الحمر... ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق منها الذي رأيتم منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها؛ فأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر...

النفوذ ممكناً، وهو الطريق الذي يؤدي إلى محلة بني قريظة. وقد كان بنو قريظة حلفاء المسلمين وأعوانهم، لكن حي بن أخطب زعيم يهود بني النضير استطاع ان يروض كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة وصاحب عهدهم، وجعل منه يداً يستعين بها على ضرب محمد.

بعث محمد رسولاً إلى كعب بن أسد ليختبر صحة الإشاعات التي تثار حوله، وطلب من الرسول ان يعلن للمسلمين كذبها إذا كانت كاذبة، واذا صدقت يخبر النبي بها سراً، فعاد الرسول وأخبره بخيانة كعب سراً، لكن الخيانة لم تبق في طي الكتمان، وأحسَّ المسلمون بالواقع المؤلم.

اشتد عضد جيش الأحزاب وزاد أمله بالنصر؛ اما المدينة فقد اضطربت اضطراباً شديداً. فالمسلمون يرون المدينة تغرق في أنهار الدماء بعد لحظات، وفقدوا الأمل بأيّة مقاومة، والمنافقون يذرون بلسعات ألسنتهم ملحاً على جراح المسلمين.

وليس هناك الآن الاّ سبيلان: امّا الموت المشرف الذي سيتبعه سلب البيوت وأسر أهلها، وامّا عار طلب الأمان، الذي يقذف بجهود ومعاناة ثمانية عشر عاماً أدراج الرياح.

اشتد قلق المسلمين، وهم يرون بأم أعينهم ان ليس لديهم مقابل عشرة آلاف سيف غير خندق يبلغ عرضه أربعين متراً، وقد ملأته خيانة بني قريظة تراباً.

الهادىء المطمئن الوحيد، الذي يبحث عن جسر يعبر عليه للنصر هو: محمد، وكأنه غافل عن اضطراب أصحابه وخيانة اليهود وجموع العدو، التي لا سابقة لها. وكأنه يقود المعركة أمام عدو أقل اقتداراً منه، فكان لا يداخله أدنى شك في النصر.

كان محمد عالماً بان المدينة عاجزة أمام المواجهة المباشرة، وكان عليه ان يستخدم وسائل أُخرى.

أخذ يقرأ وجوه أجنحة العدو المختلفة، وهو يرى ان طبيعة عدائها متفاوتة، فقريش تحمل عداءاً سياسياً ودينياً متجذراً، اما غطفان فبدوٌ دافعهم الأكبر إلى المجيء حب الغارة وجمع الغنيمة.

اذن؛ يمكن اثارة الفرقة بين صفوف العدو المختلفة. فأرسل إلى الحارث بن عوف وعينية بن حصن ان ينصرفا عن القتال ولهما ثلث حاصل المدينة، فترددت غطفان في أمر الحرب، وأبلغت النبي استعدادها لقبول الشرط. لكن الأوس والخزرج الذين يملكون أكثر مزارع المدينة رفضوا الشرط، واشتعلت الحرب. لكن مداولات المداهنة بين المدينة وغطفان زلزلت الروح القتالية للعدو.

عبر عكرمة بن ابي جهل وعمرو بن عبدود وشاعران الخندق من ثغرة فيه، وطلبوا المبارزة. فتصدى لهم علي بن ابي طالب الذي يبلغ العشرين ونيفاً، مع بضعة من الرجال، فقاتل علي عمرواً فارس العرب المشهور وألقاه صريعاً على التراب. وقد كان مصرع عمرواً حدثاً مذهلاً، ادّى بعكرمة وصاحبيه ان يُسرعا بالهروب.

فكبّر المسلمون، وسيطر الصمت والحيرة على الجانب الآخر من الخندق. أخذت الشمس بالغروب، حيث كان نوفل بن عبد الله يتقحم الخندق لجبران موت عمرو، وفرار عكرمة بطل جيش الشعراء، لكنه سقط في الخندق ومات! ثم سكتت الحرب الاّ مناوشات بالنبال بين الطرفين.

لم يكن حول المدينة من طعام وعلف يكفي لعشرة آلاف رجل ودابة. تعب بنو غطفان أثر الانتظار، الذي لا محصلة له، وأثر شحة الغذاء وشدة البرد. ولم يكن لبني قريظة أي عمل ايضاً؛ على الرغم من الأمل الكبير، الذي كان معقوداً على هممهم. وقد ردّ علي بحزم أول هجوم اقتحامي، وأثبت للأحزاب ان التسلّط على أنصار محمد القلائل ليس بالأمر اليسير، خلافاً لما يتصورون.

التردد، والاختلاف، واللامبالاة، وشحة الطعام، وفقدان الثقة بمصير المعركة، أخذ بالتدريج في إضعاف معنويات الأحزاب.

وفي هذه الأثناء قلب النبي موازين الميدان مرةً واحدة لصالحه، وغيّر مصير المعركة من خلال إجراءٍ حكيمٍ.

فقد عهد النبي إلى نعيم بن مسعود «الغطفاني الذي يكتم اسلامه» بتنفيذ الخطة.

بدءاً اتصل ببني قريظة الذين يعرفهم من الجاهلية، وقال

لهم: ان قريشاً وغطفان تختلفان عنكم، فهؤلاء سيتركون ساحة المعركة بيسر بسبب صعوبة المعركة فيهربون، أو يصالحون محمداً، وسيتركونكم لوحدكم في قبضة محمد. ولأجل ان تتأكدوا من ثباتهم وإصرارهم على القتال خذوا بعض كبارهم رهينةً لديكم.

ثم اتصل بقريش وغطفان، وقال لهم: ان اليهود قد اتفقوا سراً مع محمد، ويعزمون على أخذ بعض كباركم رهينةً لديهم، ثم يسلمونهم لمحمد.

في اليوم الثاني أجاب اليهود طلب مبعوثي قريش وغطفان، الذين طلبوا منهم البدء بالقتال، وقالوا: «ان اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً... ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا...».

فحوّل هذا الجواب شكّهم إلى يقين، وردّوا طلب بني قريظة بخشونة، وقالوا لهم: ان أردتم القتال فابدأوه غداً، دون رهينة.

وساء ظن اليهود بقريش وغطفان ايضاً. وكان المسلمون بدورهم يبثون في صفوف العدو الإشاعات، ويشعلون نار الخلاف، وسوء الظن في أوساطه.

فانقلبت معنويات الجيشين المتقابلين على جانبي الخندق انقلاباً عكسياً تماماً، فخارت قوى أعداء محمد، ورجحوا الفرار على القرار ليلاً، وهرعوا خائفين يملؤهم الرعب.

السّنة السادسة من الهجرة:

غزوة بني المصطلق: وقعت هذه الغزوة في شعبان، حيث غزا النبي بني المصطلق. وهم قوم من خزاعة. فقد بلغ النبي ان قائد بني المصطلق أخذ بتعبئة رجاله للهجوم على المسلمين، فخرج لهم غازياً وهزمهم على ماءٍ لهم. وبعد انتهاء المعركة حدث حادث طارىء، ولولا حنكة النبي في معالجته لكان ذلك الحدث خطراً جديداً على الإسلام، ولذهبت أتعاب النبي بأسرها أدراج الرياح. فعلى ماء بني المصطلق وقع شجار بين أجير لعمر بن الخطاب وسنان الجهني حليف الخزرج، فصاح الأجير منادياً: يا معشر المهاجرين؛ وصاح سنان: يا معشر الأنصار. فشاط عبد الله بن أُبيّ «رأس المنافقين» غيظاً وقال لمن معه: «أوقد فعلوها... والله ما عدنا وجلابيب قريش الاّ كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك! اما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل».

بلغ خبر «بن أُبي» النبي وكان عنده عمر بن الخطاب فقال عمر للنبي: مُرْ به عباد بن بشر أو بلال فليقتله. فقال له النبي: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذِّن بالرحيل».

لقد كان الجيش متعباً، ولم يكن الوقت ساعة حركة، لكن النبي لم يتوقَف، بل واصل المسير يوم ذاك واستمر في الليل حتى ظهيرة اليوم الثاني، حيث انتصبت الشمس على الرؤوس وسط النهار، فأصدر أمراً بالتوقف. وما ان مسَّ الأصحاب الأرض ـ بعد

التعب المضني ـ وقعوا نياماً، فغطّوا في نوم عميق. ثمَّ استيقظوا بعد استقرار عصبي، رفع النوم خلاله آثار الغضب والحقد الذي اشتعلت به نفوس المهاجرين والأنصار، والذي كان بن أُبي يُذكيه.

وحينما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبي: ان النبي أخذ بأُذن الرجل الذي أخبره خبر بن أُبي وقال له: هذا الذي أوفى لله بأذنه، أسرع إلى النبي وقال: «يا رسول الله انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل اليك رأسه... واني أخشى ان تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار»، فقال النبي: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

السلوك المتعالي الذي استخدمه النبي مع عبد الله بن أُبي أدى إلى تزلزل اعتباره الاجتماعي ـ حيث كان رجلاً ذا نفوذ وشخصية ـ بين أصحابه، وأخذوا يعنِّفونه بعد ذلك بصراحة وعلانية. وبعد ان قضى النبي بسلاح العفو والمداراة على أخطر عدو داخلي، قال لعمر»: «كيف ترى يا عمر؛ اما والله لو قتلته يوم قلتَ لي اقتله، لأُرعِدت له أنوف، لو أمرتها، اليوم بقتله لقتلته».

السنة السابعة من الهجرة:

لقد كانت الحدود الشمالية والشرقية للدولة الاسلامية ـ التي تخضع لنفوذ الروم وايران سياسياً ـ مثار قلق محمد واهتمامه. ومن هنا ارتفعت نسبة الفعاليات الحربية في هذه السنة.

صلح الحديبية: الكعبة بيت القبائل العربية عامة، وليس لقريش حق ملكيتها، بل لا تتعدى كونها سادن البيت، ولا يمكنها منع ايّ عربي من زيارة بيت ابراهيم؛ من هنا أعلن النبي في ذي القعدة انه عازم على زيارة الكعبة. وقد حاول النبي من خلال أقواله وأعماله المختلفة ان يُثبت لجماهير العرب انه لا يستهدف من هذه الزيارة هدفاً سياسياً أو عسكرياً؛ ولذا لم يقصر هذه الزيارة على المسلمين، بل استجاب لدعوته بعض المشركين. ولا يحق لكل زائر ان يحمل معه من أدوات الحرب الاّ سيفاً واحداً. وحينما سمعت قريش بحركة محمد خرجت صغاراً وكباراً متعاهدة على ان لا تسمح لمحمد ان تطأ قدماه مكة.

تقابل الجيشان، وكان الشهر حراماً، والنبي يسعى ان لا تكون لقريش أدنى حجة في الحرب، لكي تضحى قريش هي المعتدية على حرمة الشهر لو وقعت حرب.

في هذه الأضواء، فالنبي ان لم يفلح بزيارة البيت الحرام لكنه يحقق نصراً سياسياً وأخلاقياً، وان استطاع دخول مكة فسوف يذاع بين العرب: ان محمداً عاد إلى الكعبة زائراً بعد ست سنوات من هجر مكة فاراً ، ومعه الف وأربعمائة مسلم، وقريش تبصره ولا تستطيع سوى السكوت.

وبعد مداولات متعددة أرسلت قريش «سهيل بن عمرو» ليصالح محمداً على: ان ينصرف هذا العام عن زيارة بيت الله، ويمكن للمسلمين في العام القادم المجيء لزيارة الكعبة.

وفي ضوء هذا الصلح انتهت حالة الحرب بين المسلمين وقريش، وأضحت الحركة حرة لكلٍ منهما في حدود الأرض التي يسيطر عليها الآخر.

لقد وافق النبي على الصلح بكل ما أراده سهيل بن عمرو من شروط، بشكل أدى إلى غضب الأصحاب، بحيث خُشيَ من وقوفهم دون ما أراده النبي. حزن المسلمون حزناً شديداً، خصوصاً المهاجرين منهم، ذلك انهم منعوا عن زيارة الكعبة، وأُرجعوا من أبواب مكة. وقد وجد الأصحاب شروط الصلح كلها معبرة عن ضعف وذلة المسلمين وقوة وتفوق قريش. على أثر ذلك فقد الأصحاب رشدهم وانكفأوا، وكأنهم عائدون من معركة ليس لهم فيها نصيب الآ الانكسار والذلة.

لكن هذه المعاهدة أعطت اول ثمارها غير المتوقعة. فقد اعترفت قريش بالإسلام رسمياً، وتوفر المسلمون في مكة على حرية العقيدة والتبليغ، وأخذوا بإدخال جماهير مكة إلى الإسلام جماعات جماعات. وأذنت قريش للمسلمين بزيارة الكعبة في السنة القادمة. كما أذنت لهم بالإفادة من طرق القوافل والتجارة.

على ان يلتزم المسلمون مقابل ذلك بتجنب مضايقة القوافل وقطع الطرق أمام قريش. فيكون طريق الساحل من مكة إلى الشام مفتوحاً بحرية أمام القوافل، كما يلتزم المسلمون وفق هذه المعاهدة بتسليم من يلتحق بهم من قريش حين مطالبتها بهم. وبعد الصلح فرّ رجل يُدعى «ابو بصير» من سادته في قريش، ولجأ إلى المدينة.

وكان على النبي ان يسلمه لقريش، وفقاً للمعاهدة، فسلّمه لرسوليّ مكة.

فقال ابو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ لكن محمداً نفّذ بنود الصلح رغم غضب الأصحاب. وسلّم «ابا بصير» بيد رجلين جاءا للمطالبة به من مكة، لكنه استطاع في الطريق ان يقتل أحدهما، ويفرّ. أتى ابو بصير المدينة وقال: يا رسول الله! وَفَت ذمتُك، وأدى الله عنك اسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بدِيني ان أُفتن فيه، أو يعبث بي.

لقد أعجبت شجاعة أبي بصير وثباته النبي، ولم يكتم اعجابه وتقديره... خرج ابو بصير من المدينة، حيث لا يمكنه الإقامة فيها، واتجه صوب الصحراء، واختفى في منطقة على طريق قريش إلى الشام.

أخذ من يُسلم في مكة بالالتحاق بأبي بصير، حيث لا يمكنه اللجوء إلى المدينة، وفق معاهدة صلح الحديبية. فأضحى طريق الساحل غير آمن أمام قريش، وقام ابو بصير بقتل كل من يظفر به من رجال قريش.

فاضطرت قريش ـ التي ليس لها سبيل إلى ابي بصير فلا السيف ينفعها ولا القانون معه ـ إلى التماس النبي لكي يستدعي ابا بصير وأصحابه إلى المدينة، وحذف بند «استرداد اللاجئين للمدينة» من بنود المعاهدة. وفي ضوء هذا أضحى ما حمّلوه على المسلمين، وما كان يعدّونه عاراً، فخراً وانتصاراً. فأفصح صلح الحديبية عن اعتراف رسمي وقانوني بقوة الإسلام، وأدى إلى رفع

حاجز الخوف من قريش أمام القبائل، التي تدخل الإسلام.

وأهم نتائج صلح الحديبية هي: ان النبي أمن جانب قريش وحلفائها، الذين يشكلون أكبر أعدائه، لعشر سنين. وحيث كانت القبائل المتفرقة الأخرى سوى قريش لا تشكل خطراً جدياً بالنسبة للنبي، فقد تهيّأت للنبي أرضية ايجابية لبسط سلطان الإسلام على أرجاء الجزيرة، بل حتى خارج حدودها.

رسالة إلى قادة العالم: حان أوان خروج النبي برسالته إلى خارج حدود الجزيرة العربية؛ ليعرضها على كل جماهير الدنيا. ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن.

ذات يوم قال النبي لأصحابه: اني بُعثت رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليَّ كإختلاف الحواريين على عيسى بن مريم.

قالوا: يا رسول الله، وكيف كان اختلافهم؟ قال: «دعا إلى مثل ما دعوتكم اليه فأمّا من قُرب به فأحبّ وسلم، وأما من بُعد به فكره وأبي». ثم أعلن عن قراره بأنه عازم على دعوته كسرى وهرقل والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن والنجاشي ملك الحبشة، للإسلام.

كانت رسائله حازمة ورسمية، انطوت على احتمال رد فعل شديد ممّن أُرسلت اليهم، وكان النبي مدركاً لإحتمال هذا الخطر، لكنه أقدم على هذا العمل الخطير بشجاعة عظيمة، في نفس الوقت

الذي أخذ فيه بأعداد الأرضية الممكنة لمواجهة هذا الخطر خصوصاً على الصعيد العسكري والسياسي. وكانت خطوته الأولى ان يقوم بتطهير المحيط؛ الذي يسيطر عليه من العناصر المريبة، التي ستكون قاعدة للعدو حين حصول خطر خارجي، ومن الأقليات التي يمكن ان تلعب دور الرتل الخامس للعدو في الداخل. وتمثل هذه الخطوة أكثر الخطوات الحاحاً وأمسّها بحياة الأمة، بالنسبة لقائد مجتمع يتحمل مسؤولياته.

غزوة خيبر: كان المسلمون يعتبرون «خيبر» معقلاً مريباً يبعث على القلق، ومنطلقاً لأقوى عناصر التآمر والإثارة.

لقد كانت المعلومات الواصلة من خيبر ـ ابان الفترة التي كان النبي يرقب فيها بقلق ردود فعل أكبر القوى العالمية ـ تحكي عن مؤامرات تحاك ضد المدينة. وكان احتمال تحول خيبر إلى قاعدة لامبراطور الروم أو ايران. . . أمراً قائماً في كل آن. فتُتخذ هذه القاعدة للهجوم على «يثرب» ـ مدينة محمد الصغيرة الضعيفة التي لا تمتلك أكثر من ثلاثة آلاف مجاهد ـ وإبادتها.

لم يمر على صلح الحديبية أكثر من شهر حتى أسرع النبي في التحرك من المدينة، ليباغت عدوه ـ على طريقته في الحرب ـ فقطع ما يقرب من مائتي كيلومتر في ثلاثة أيام، فنزل في «الرجيع» ـ وهو ماء لغطفان، يقع بين خيبر ومنازل غطفان ـ ليقطع طريق امداد غطفان لحلفائها في خيبر.

وفيما الناس يخرجون من قلاعهم مبكرين لمزارعهم فوجئوا

بجيش المسلمين يحاصر مدينتهم من كل صوب، فولّوا راجعين، وهم يصرخون: هذا محمد قد جاءكم بأصحابه. فاستبشر النبي، وقال: الله أكبر لقد خربت خيبر، انّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

ابتدأت المعركة، فخرج خمسون من المسلمين، وقد كانت مقاومة اليهود شديدة وكانت قلاعهم حصينة. فمضت الأيام، ولم يسجل جيش المسلمين تقدماً، فقلاع خيبر تبدو عصية على الاقتحام، والمسلمون يهددهم الجوع. واليهود يقاتلون ببسالة؛ اذ لا سبيل لهم الاّ الموت أو الانتصار... ورغم كل المقاومة المستميتة أخذت القلاع تتساقط الواحدة بعد الأخرى.

ويهود «فدك» وقّعوا معاهدة صلح، تركوا أمر «فدك» فيها للنبي.

غزوة وادي القرى: عاد محمد إلى المدينة من «خيبر» و«فدك» سالكاً طريق وادي القرى؛ ليحدد بوضوح علاقته بيهود «وادي القرى» و«تيماء». هبَّ يهود «وادي القرى» لقتال النبي فكسر شوكتهم، اما يهود «تيماء» فصالحوا على الجزية. وبذلك أُجتثت جذور الخطر اليهودي من سائر أرجاء جزيرة العرب.

جواب هرقل: بينا كان هرقل عائداً من ايران منتصراً، ليضع الصليب الأصل في بيت المقدس تلقى رسالة من النبي، فردّ عليها رداً جميلاً، ولم يستجب لطلب الأمير الغساني في حرب النبي.

كما عاد آنئذٍ حاطب بن ابي بلتعة من مصر، وهو يحمل هدايا «المقوقس» ورسالته الشفهية إلى النبي، حيث ضمَّنها انه في انتظار ظهور نبي، ولكن من الشام.

السرايا بعد خيبر: وجد النبي نفسه ـ بعد فتح خيبر ـ مأمون الجانب من قبل خصومه التقليديين. فقضى شهور «ربيع وجمادي ورجب وشعبان ورمضان وشوال» في المدينة هادىء البال، دون ان يزمع على مباشرة عمل خطير، يمنعه من تحقيق خطته التي تجول في خاطره، حيث ان شهر «ذي القعدة» موعده ـ وفقاً لمعاهدة الحديبية ـ لدخول مكة بصحبة جيشه، والطواف حول الكعبة لأول مرة في تاريخ الإسلام، وتحت أنظار قريش.

وخلال هذه الشهور «من فتح خيبر إلى دخول مكة» اقتصر النبي على ارسال سرايا صغيرة إلى حوالي المدينة والى معاقبة بعض القبائل والمجاميع المتفرقة، التي اعتدت على بعض المسلمين أو حلفائهم.

الى مكة... عمرة القضاء: مرّ عام على صلح الحديبية، فخرج النبي إلى مكة في ألفي مسلم، وحيث ان صلح الحديبية ينص على عدم السماح لهم بحمل أكثر من سيف لكل واحد منهم، أرسل النبي محمد بن مسلمة بمائة راكب، ومعهم السلاح الكافي؛ ليقفوا مستعدين عند «مرّ الظهران» التي تشرف على مكة؛ دفعاً لاحتمال الخطر المترقب.

اقترب الجمع من مكة، وعند مشارفها، حيث تقع مكة في الوادي، كان الصمت يسيطر على المسلمين من شدة الشوق والهيجان. فأسرع النبي بناقته «القصوى».

هذه هي مكة، وهذه الكعبة... لقد كانت الذكريات آنئذ لا تستحق سوى لحظة عابرة في اهتمامات محمد، لقد كان عازماً على عملٍ آخر: الكعبة، الأوثان، قريش...

علا صوته بالنداء: لبّيك، لبّيك... فصاحت الجموع الملتهبة بصوت هزّه الشوق: «لبّيك، لبّيك». فتموجت الصور على العيون الدامعة، ولم يطق البعض صبراً فتعالت أصواتهم بالنحيب والبكاء.

تركت قريش المدينة؛ لكي لا ترى هذا المشهد الصعب. الآ العباس ابن عبد المطلب حيث وقف مع جمع من قريش عند «دار الندوة» يرقب المشهد بقلق.

هذا يتيم أبي طالب! ذاك علي، ابو بكر، عمر، طلحة، الزبير... وها هناك خالد بن الوليد! عمرو بن العاص! فانحدر النبي من الشمال صوب الكعبة، وعبد الله بن رواحة يمسك بزمام ناقته، ويرتجز مفتخراً.

انتهت مراسم العمرة. ذهب المهاجرون إلى بيوتهم بعد سبع سنين من فرقتها، واصطحبوا معهم اخوتهم الأنصار الذين يستضيفونهم في المدينة. كانت مكة خالية من قريش والمسلمون

يطوفون شوارعها بحرية، ومحمد يذهب ويجيء داخل هذه المدينة، يتحدث ويضحك في مكة التي أضحى جميع سكانها الآن أوفى أتباعه وفدائييه.

الزواج بميمونة: كان العباس ـ عم النبي ـ مسلماً يكتم اسلامه، وكان يميل إلى محمد. لكنه ـ كسائر المرابين ومحبّي الثروة والمال ـ كان يحاول ان يقوم بأعمال غير سياسية، ويقدم النصح والمشورة التي لا تلحق به الضرر ليقترب من محمد، دون ان يهدم ما بناه مع قريش.

من هنا اقترح على محمد الزواج بميمونة «اخت زوجته». وحيث ان النبي كان عالماً بما تتمتع به عائلة ميمونة من موقع اجتماعي، وافق مباشرة على اقتراح العباس وقرر الزواج بها في مكة، على ان يدعو قريشاً كلها لزواجه؛ بغية تخفيف حالة العداء والغربة. خصوصاً وهو يعلم ان العامة أخذت تقترب من الاسلام تدريجاً، وازداد شوقها عبر هذه الأيام الثلاث وهي ترى محمداً ـ خلافاً لأعلام قريش ـ يحترم الكعبة أكثر مما يحترمونها، ويقيم المناسك كما يقيمونها، وينحر الأضاحي.

ويرون المسلمين متراحمين فيما بينهم يعلو الحب والصفاء جباههم، ينأون عن الحقد الذي يحمله الجيش المحتل، الذي يتوقعه البدو المتوحشون. لكن قريشاً أرسلت مبعوثها في اليوم الثالث، الذي يحق لمحمد البقاء فيه بمكة وأبلغته: ان أخرج عنّا فقد انقضى أجلك. فاضطر النبي إلى ترك مكة، وترك ابا رافع ليأت له بميمونة.

تزوج النبي في «نسرِف» بميمونة وهي بنت ستة عشر عاماً. وكانت آخر نساء النبي.

لقد أنجز النبي المرحلة الأولى من رسالته السياسية انجازاً موفقاً، وأيقن المسلمون ان الله تعالى اختارهم لتجسيد ارادته.

السنة الثامنة من الهجرة:

كتب النبي كتاباً في هذه السنة إلى المنذر بن ساوي العبدي صالحه فيه على أخذ الجزية من المجوس، وان لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم.

ويرى الواقدي ان اسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وورودهم إلى المدينة كان في بدء هذه السنة[1].

سرية مؤتة: يتضح من خلال ممارسات النبي العسكرية انه كان مهتماً بشكل بالغ بناحية الشمال. وحينما يقترب نفوذ الاسلام السياسي والمعنوي من الحدود الشمالية فسوف يتجاوزها، اذ ان الحدود الجغرافية لا تقيد حركة النبي بداهةً.

صحيح ان مكة عطفت توجهات النبي نحو الجنوب على الدوام، الاّ اننا إذا استثنينا مكة واليمن فليس هناك مجموعة سكانية في الجنوب ذات أهمية خاصة من زاوية نشر الإسلام وامتداد نفوذه.

كما يقع غرب المدينة البحرُ الأحمر وثم افريقيا، ونشر

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص ٣١٣.

الإسلام في هذه البقاع لا يحتل اولوية خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار المتاعب الكثيرة التي ينطوي عليها.

وعلى العكس شمال الجزيرة وشرقها، ففيهما أكبر حضارتي العالم آنئذٍ، ومن ثم فهما يضمان أكثر المجتمعات البشرية أهمية من الناحية السياسية والعسكرية والثقافية والدينية، ومن ثم سينصب اهتمام النبي بهاتين الناحيتين حتماً بعد الفراغ من القضايا الداخلية؛ وقد فرغ الآن.

الا ان الدولة الرومانية اقرب جغرافياً إلى المدينة من فارس. ثم ان الروم أرض «المسيحية» الدين الذي يلتقي مع الإسلام كثيراً، ويقترب منه، وينسجم معه، وبالتالي يفهم لغته جيداً. ومن هنا نجد ان النبي توجه إلى الروم، وهو لم يفتح مكة بعد.

أرسل النبي «الحارث بن عمير» إلى «شرحبيل الغساني» ملك «بُصرى» فقتله شرحبيل، على أثر ذلك أخذ النبي بزمام المبادرة؛ لأجل ان يوقع الضربة الأولى بملوك الامبراطور، ويذهب بالقوة الاسلامية خارج حدود شبه الجزيرة العربية. فعبّأ في جمادى الأولى ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، ومن بعده جعفر بن ابي طالب. ، ومن بعده عبد الله بن رواحة، ثم ترك للجيش ان يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أُصيب الثلاثة.

لقد كان أمام هذا الجيش عمل كبير، فخرجت الجماهير خارج المدينة لوداع أكبر جيش يصدر منها حتى ذلك الحين. وهي تبارك وتحيي الجيش بصحبة النبي الذي أوصى جيشه بان لا تقتلوا

امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعوا نخلاً وشجراً ولا تهدموا بناءً لأحد. ثم دعا لهم وأقفل عائداً إلى المدينة.

وصل الجيش إلى الشام، فنزل في «مُعان»، وبلغته الأخبار بان هرقل «او أخاه تيودور» حشد مائة الف رومي ومائة الف عربي ونزل في «مآب» يستعد لقتالهم. ففوجىء جيش المدينة الصغير، وتحيّر. فأقاموا ليلتين في «معان» يتداولون الرأي: ماذا يفعلون؟ فاذا انسحبوا كيف يرجعون إلى المدينة؟ واذا واجهوا الموت واستقبلوا الشهادة فهل ان إبادة ثلاثة آلاف مقاتل «حيث يشكلون العمود الفقري لقوة المسلمين» عمل يرضي الله؟

استولى الخوف والتردد على الجميع. فارتأى بعضهم ان يكتبوا إلى النبي، ليتخذ القرار. لكن عبد الله بن رواحة رجل السيف والشعر قام فيهم خطيباً، فخاطبهم ـ بما كان يتمتع من فصاحة وقدرة أدبية ـ وقال: «يا قوم والله انّا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة، بل نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانما هي احدى الحسنين؛ اما ظهور على العدو واما الشهادة».

ففعل خطاب عبد الله فعله ونهضوا للقتال، وهو يلوّح بالسيف، ويردد شعراً يقع على النفوس موقعه فيقلع الخوف من القلوب، فيستقبل المسلمون الموت بشجاعة.

التقى الجيشان في قرية يُقال لها «مؤتة». أخذ زيد بن حارثة راية النبي يهزها بيده وهجم كالصاعقة على جموع العدو الهائلة، ومعه مجاهدون. هجم كل منهم كالشهاب الثاقب في جسد العدو.

ودفعة غاص المسلمون في قلب مائتي الف رومي وعربي، كمطرٍ من السهام.

لقد سعى المسلمون جميعهم لكي يموتوا بشكلٍ أفضل، فشهدت لهم ساحة المعركة بطولات مدهشة. سقط زيد بن حارثة قائد المسلمين الشجاع صريعاً تحت ضربات سيوف العدو المتلاحقة، ووقع لواء النبي، وفجأةً هجم جعفر بن ابي طالب كالصقر، وحمل اللواء بيده، وتقدم يقاتل. فوجد نفسه في قبضة الموت، ونزل عن فرسه لكي لا يقع في يد الأعداء، ومضى يقاتل راجلاً. وقد كان العدو يسعى لإسقاط الراية من يده. أحاط به العدو من كل جانب فضربه رومي على يمينه فقطعها؛ فألقى سيفه، وحمل الراية بيساره، ثم قطعوا يساره، فاحتضن الراية بساعديه، فضربه أحدهم بالسيف فقطعه نصفين.

ثم حمل الراية عبد الله بن رواحة، فحمل على العدو، والمسلمون يحصدهم منجل الموت الذي لا يرحم. بدأ عبد الله يفكر مع نفسه وهو متردد في جدوى المعركة بعد ان يئس من النصر، ثم نزل عن فرسه. فأتاه ابن عم له بعظم من لحم وقال له: «شدّ بها صلبك»، فأخذه وانتهش منه نهشة، فسمع تقاتل الناس وصليل السيوف فقال لنفسه: «وأنت في الدنيا» فألقى العظم من يده، واقتحم صفوف العدو وقاتل قتال الأبطال، حتى قُتِل.

ثم استلم الراية ـ باختيار المقاتلين ـ خالد بن الوليد المقاتل العربي المشهور، الذي دخل الإسلام حديثاً. فوجد خالد المعركة

غير مجدية، وعلى أمل حلول الليل، أخذ يقاتل بحذر وحيطة حتى حلّ الظلام وهدأ العسكران، فبعث خالد جماعة من مقاتليه خلف المعركة، وأمرهم ان يلتحقوا بالجيش عند السحر في جلبة وصراخ. وعند الصباح ظنّ الروم ان قوات مساندة كبيرة التحقت من المدينة بالجيش، فهزّهم ذلك ـ وهم قد ذاقوا ضربات سيوف المسلمين البتّارة ـ، وأقلعوا عن الهجوم منتظرين هجوم المسلمين. ولمّا لم يكن خالد عازماً على الهجوم، انتهت المعركة على الأرض، وركب خالد طريق المدينة، فأنقذ المسلمين بذلك من قبضة مائتي الف مقاتل. لقد حزن النبي حزناً شديداً على ما حدث للمسلمين في هذه المعركة خصوصاً مقتل جعفر. ولم يرَ المسلمون النبي قط أكثر تألماً وأشد حزناً من ذلك اليوم. فلم يبكِ النبي في حياته المليئة بالأحداث الاّ قليلاً، وقد أدهش بكاؤه المسلمين في ذلك اليوم.

عاد الجيش إلى المدينة. فغضبت جماهير المدينة في وجه الجيش العائد المغموم. فهرعوا لاستقبالهم، وجعلوا يرشون في وجوههم التراب؛ ويقولون لهم: «يا فرار فررتم من سبيل الله!». فذهب المقاتلون إلى بيوتهم يملؤهم الحزن والخجل، وقعدوا في بيوتهم استحياءً من الناس، ولم يشاركوا حتى في صلاة الجماعة مدة من الزمن.

سرية ذات السلاسل: لقد تعرضت روح الحماس، التي كان يتمتع بها جيش توالت عليه الانتصارات لشيء من الفتور، بعد واقعة «مؤتة»؛ وتزلزلت الثقة الكبيرة الوثيقة، التي منحتها الجماهير

للمقاتلين. كما اعتبرت قريش عودة خالد ـ بلا نتيجة ـ انكساراً حيث ان قضية «الانسحاب المنتصر»، التي ابتكرها خالد لم تُفهم. وضعفت معنويات القبائل المتحالفة والقريبة للمسلمين بشدة، واستقوى عليهم العدو.

بعد ذلك، كان لا بد من تلافي الآثار السلبية، التي تركتها واقعة مؤتة في النفوس، وفجأة عزم النبي على تحقيق هجوم في جمادى الآخرة. فبعد أسابيع من عودة خالد، بعث النبي عمرو بن العاص في ثلاثمائة مقاتل لغزو «بني قضاعة»، القبيلة التي كانت تتآمر على مهاجمة المدينة. وقد كانت ام عمرو بن العاص قضاعية، فأراد النبي بانتخاب «عمرو بن العاص» ان يكسب بني قضاعة أو يفرّق صفوفهم، على انه يحتمل الإفادة من طاقات بني قضاعة في الهجوم على الشام، وجبران الانكسار، الذي حدث في «مؤتة». ثم عاد «عمرو بن العاص» من بني قضاعة منتصراً.

فتح مكة:

كان النبي مدركاً ان مكة في الوقت الحاضر مهيّأة للاستسلام بيسر، ولا يُحتمل ان تقاوم مقاومة جدية ودموية. وان قريشاً رغم كونها غير مذعنة روحياً له، الاّ انها ستتحمل حكمه وتخضع له. ومن هنا آن أوان تحقيق أمنيته الكبرى: تحرير مكة وخلاص الكعبة، وعلى وجه الخصوص تحطيم الأوثان التي ناضل ضدها عشرين عاماً، وبالتالي دكّ أكبر قلعةٍ للشرك بين قومه.

الاّ ان المانع الوحيد أمام تحقيق هذه الأمنية هو صلح

الحديبية، ومحمد ملتزم بعهده التزاماً، ولا يمكنه الهجوم على مكة ما لم تنقض قريش العهد، ففتح مكة وان كان ثمناً لنقض العهد الاّ انه يبقى أمراً غير منسجمٍ مع قيم محمد.

غير ان التاريخ حينما يريد انتصار فرد أو رسالة يقوم برفع كل الموانع أمام طريقه، ويهيء له كل الوسائل، ويدفع بالخصم أيضاً ليعبِّد له الطريق بشكل لا شعوري.

كان النبي جالساً في المسجد، واذا بـ «عمرو بن سالم الخزاعي» يصل مضطرباً، ويقف بين يديه على تلك الحالة ويخبره بنقض قريش لمعاهدة الصلح.

أصدر النبي أمراً بالتعبئة العامة، فاستعد للقتال جيش جرّار لم تشهد المدينة في حياتها من قبل نظيراً له. وبعد ان أتمَّ الجيش استعداداته وتهيّأ للحركة، أعلن النبي هدف الحركة «مكة».

انحدر الجيش كالطيور المهاجرة صوب الجنوب. كان المسلمون صياماً، فأمر النبي بقطع الصيام. وقد كانت حركة الجيش سريعة سباقة، فقطعوا طريق «المدينة ـ مكة» بأسبوع واحد، وعسكر ليلاً في «مرّ الظهران»، ولا يزال خبر الجيش يحمله الجواسيس والعيون في الطريق.

أصدر النبي أمراً للمقاتلين الذين بلغوا عشرة آلاف مسلح: ان يتفرقوا في البيداء، ويوقد كل واحد منهم ناراً؛ ليدرك العدو عظمة الجيش فيتحول إلى جيش مرعب ومخيف؛ اذ كانت كل

مساعي النبي تتجه نحو الحيلولة دون سفك الدماء في مكة؛ لتحفظ حرمتها واحترامها. ومن هنا أراد للهجوم على مكة أن يكون مباغتاً، لكي لا يترك للعدو فرصة للاستعداد وأخذ العدة، وحينما يشاهد العدو هذا الجيش العظيم على بُعد أربعة فراسخ من «مكة» ينقطع أمله في المقاومة ويصبح تحرير مكة تحريراً أبيض لا دم فيه.

«ابو سفيان» التاجر المتآمر، الذي آذى النبي عشرين عاماً، ولم يسكن حقده على الإسلام لحظة واحدة، يجد وقتئذٍ خصمه مقتدراً، فيلتحق به ليلاً، ويترك الجماهير التي استخدمها أداةً لأغراضه المادية والسياسية بشكلٍ مخجل، ويستسلم بمفرده مستشفعاً بـ «العباس» ويسلّم في المحصلة مصير جماهيره بيد العدو.

النبي الذي كان يفهم «أبا سفيان» جيداً، حاول ان يستخدمه وسيلة لتحقيق أهدافه السياسية والاجتماعية، بعد إِضعاف روح المقاومة في داخله واستهلاك شخصيته السياسية المأثورة.

لقد هيّأ النبي كل المقدمات اللازمة للحيلولة دون نهوض «مكة» مقاومةً، وفي نفس الوقت كان يسعى للحيلولة دون وقوع اية حادثة صدامية أثناء دخول مكة، وقد كان ذلك السعي مهمة شاقة. فدخول جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل ـ تشكل القبائل البدوية حديثة العهد بالإسلام أكثريته ـ إلى معقل الديانة الوثنية والوثنيين، لا يمكن ان يكون خلواً من أي اصطدام واية مواجهة. فمن المتوقع تلك الأثناء ان تطفو على السطح العصبيات القبلية ومن المتوقع ان

يثير تحدي الجيش الفاتح غضب بعض الوثنيين فيُواجه بغرور وقساوة بعض القبائل حديثة العهد بالإسلام التي لم تنل بعد نصيباً من التربية الإسلامية. ان هذه التوقعات تشكل أخطاراً تقلق النبي، رغم كل ما اتخذه من احتياطات شاملة وحكيمة.

تحرك الجيش وانتهى إلى «ذي طوى»، حيث معالم مكة واضحة: هادئة خافتة، لكنها قلقة مضطربة. فاطمأنّ النبي إلى ان مكة غير عازمة على المقاومة.

فرّق النبي الجيش أربع فرق على ان تدخل كل فرقة «مكة» من زاوية، وأمر قادة جيشه ان لا يقاتلوا الاّ مَنْ يقاتلهم. لكنه استثنى جماعة وأمر بقتلهم، وان ظفروا بهم متعلقين بأستار الكعبة.

ضربوا للنبي بأعلى مكة قبة جوار قبر «خديجة» و«ابو طالب» ومن داخلها كان يرقب بدقة دخول الجيش المسلم، الذي انحدر كالسيل نحو المدينة من أربع جهات.

هذه «مكة»... هكذا سكتت أمامه وأمام أنصاره!

نعم سكتت إلى الأبد نداءات أبي جهل، وأبي لهب، وهند، وعتبة، والوليد، وأمية بن خلف،... وهذه صيحات الآلاف العشرة من المسلمين ترنّ في البيداء نحو «حراء» الذي يرقب رفيقه...

يرى «الغار» ربيبه الوحيد الأعزل، وهو اليوم يقف شامخاً، وفي أوج اقتداره، وفيافي مكة مملوءة بآلاف الفدائيين من أنصاره.

وصلت فرق المقاتلين من جهاتها الأربع إلى حيث ميعادها، فالتفّت حول المسجد الحرام. . . وبذلك انتهت المهمة.

ركب النبي راحلته، وانتهى إلى حيث معسكر الجيش، فدخل البيت الحرام وأخذ بالطواف حوله راكباً، واستلم الركن بعود في يده، وبالشوط السابع انتهى طوافه. ثم استدعى «عثمان بن طلحة» فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها. ثم أخذ يطيح بالأوثان الواحد بعد الآخر. ويروي المؤرخون الشيعة أنه حمل علي بن ابي طالب على كتفه فألقى علي بالأوثان خارج الكعبة.

كانت الجموع تنتظر بفارغ الصبر وتترقب عاقبة الأمر.

وقف النبي أمام باب الكعبة مواجهاً للجموع. وكانت قريش تتطلع لحياتها أو موتها؛ حيث انها أسيرة بين شفتي محمد. انها لحظات عظيمة ومصيرية؛ حيث يبدأ التاريخ.

لقد قام محمد بمهمته الكبرى التي سعى عشرين عاماً لتحقيقها، وتحمل الأتعاب والأذى في سبيلها، وها هو يغرق في الانتصار العظيم. ويصل إلى قمة آماله القديمة ـ فبعشرة آلاف سيف فاتحٍ تحت امرته يمسك بمصير المدينة التي آذته ثلاثة عشر عاماً، ويستلم مقدرات قوم رفعوا السيف في وجهه وسلقوه بالاتهامات والسباب عشرين عاماً.

محمد يريد ان يتحدث. . . فتتسارع ضربات القلوب. . .

كانت الآلاف من المقاتلين وغير المقاتلين، النساء والرجال، الصغار والكبار، الأعداء والأصحاب، منشدّة لشفتيه. وكأنّ على رؤوسهم الطير. فبدأ النبي حديثه ثم التفت إلى قريش مخاطباً اياها: «يا معشر قريش ما ترون اني فاعل فيكم؟. قالوا: خيراً، اخ كريم وابن اخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

كلما بلغ محمد أعلى درجات الاقتدار والانتصار ذهب في تواضعه ورحمته أرفع الدرجات... وهذه أبرز خصاله. فبعد ان أعلن العفو العام أخذ يتلمس أبسط المبرِّرات للعفو عن اولئك الذين استثناهم لخياناتهم الفاحشة.

وقد سعى النبي للحفاظ على السنة في حرمة «مكة»، حيث ان المكان الحرام «مكة» والأشهر الحُرم «الأشهر الأربعة» كانت العامل الوحيد لإيقاف الحروب في مجتمع كانت تسوده النزعات القبلية والأحقاد الأُسرية.

وبجزم وحزم قال: «ايّها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة...».

وقف النبي على جبل الصفا... لقد وقف على المكان الذي وقف عليه من قبل يوم نادى أهل مكة بأن لديه خبراً، وحينما اجتمعوا حوله ووجدوا ان خبره توحيد الله ورسالة الإسلام واجهوه جميعاً بالاستهزاء والسباب. وتركوه وحيداً على الصفا. لقد وقف على المكان الذي قال له عمه ابو لهب: ألهذا دعوتنا إلى هنا قطع الله يدك... اما الآن عاد إلى الصفا الرجل الذي وقف التاريخ

حائراً أمام حياته المليئة بالخلق والأحداث والذي يطوي بيديه مستقبلاً كبيراً.

فبعد ما يقرب من عشرين عاماً من الجهاد المتواصل وتحمل الكثير من المتاعب على طريق النضال في مجتمعه المنحطّ يعود إلى الصفا. لكنه يعود هذه المرّة وقد حوّل قوى العصيان والتمرد ـ بقوة الإرادة ومعجزة الإيمان ـ إلى قوى طيّعة بين يديه، وخضعت القلوب والأجساد أمام فكره النافذ وقوته الساحقة.

ازدحمت قريش حول الصفا نساءً ورجالاً لتبايع النبي. . . وقد أحدقت به الأنصار وهم يتساءلون في قلق: هل ان محمداً سيترك مدينته ومنزله ويقيم في موطن آبائه ومسقط رأسه؟ أجابهم محمد: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

وبعد أن هدم الأوثان وطهّر الكعبة، ودخلت قريش في الإسلام، أراد أن يزيل آثار الوثنية من كل مكان فأمر أن يكسر كل صاحب وثن وثنه، ثم شرع بهدم أوثان القبائل المحيطة بمكة.

غزوة حنين: أثار خبر سقوط مكة قبائل العدو وجعلها خائفة مرتعبة، ولم يكن أمامها الاّ التسليم أو ان تتكاتف كل القوى المناهضة وتهجم ـ وفق تخطيط واسع ـ بغتةً على محمد. فسعى مالك بن عوف إلى تشكيل جبهة مشتركة من جميع القبائل المعادية للإسلام.

عبّأ الكثير من «هوازن» وانضمت اليهم «ثقيف» جميعها، كما

تجهزت «نصر» و«جشم» كلها. والتحق بهؤلاء بنو سعد بن بكر، وجمع من بني هلال أيضاً. وبذلك يتجمع جيش من الأحزاب مرة أخرى لمواجهة النبي. وكان هؤلاء على يقين - في ضوء معرفتهم الدقيقة والواضحة بالظروف - ان ليس أمامهم الاّ الهجوم بكل قواهم عليه، وان أي تردد وضعف سيؤدي إلى القضاء عليهم بسهولة. ومن هنا اصطحبوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم وماشيتهم، ليقطعوا كل روابطهم بالحياة، ولكي لا تشدهم اية علاقة في جبهة القتال بخلف الجبهة. فينصب كل اهتمامهم على المواجهة.

في الثامن من شوال - بعد خمسة عشر يوماً من ورود النبي إلى مكة - خرج بجيشه وبألفي مقاتل قرشي. كمن العدو في وادي حنين، وملأ الطرق والمخابىء ومشارف الجبال. وصل جيش المسلمين حنين. نام المقاتلون ليلاً - وفقاً لعادة النبي العسكرية - ونهضوا عند هبوب نسائم السحر.

لم يُسمع صوت الآذان، وكان ذلك ايذاناً ببدء المعركة. انحدر الجيش كالسيل العارم في الوادي، وكمائن العدو لا تبين. كان الوادي أجوفاً ينحدر انحداراً، لكن الخطر كان يتستر خلف كل صخرة ومنعطف، وكان صفير الوادي يقرع الأسماع. مضى الجيش في سيره نحو بطن الوادي. وأخذ الطريق يضيق أمام اثني عشر الف مسلم.

فجأةً يهز الوادي انفجاراً مخيفاً، ألقى في عماية الصبح بظلٍ

كثيف على أرتال الجيش الطويلة. كانت لحظات رهيبة. وقع المسلمون في مضيق الوادي وظلمة السحر تحت ضرباتٍ صاعقة لرجالٍ لا يهابون الموت. تساقط المسلمون على الأرض، وكانت المقتلة هائلة جداً، حيث أُبيدت طائفتان من المسلمين تماماً. وأخذوا بالفرار من كل جانب. وبينما النبي يتابع مسيره، واذا بسيل الجيش قد توقف، واضطربت صفوفه، والفرسان يتركون الوادي. أصابه ألم عميق وهو يلمس ان كل ما لديه يذهب أدراج الرياح، وان انتصاراته الكبرى ستُقبر في وادي حنين.

ابو سفيان ورجال من قريش اضطربوا فرحاً، وكشّروا عن أسنان أحقادهم.

بينما يرى النبي الفرسان يخرجون مضطربين من الوادي، هرع إلى أصحابه ونادى: «أين؟ ايها الناس هلمّوا اليَّ، انا رسول الله، انا محمد بن عبد الله» تفتت نداؤه في ظل أنوار الصباح المدوّية.

انتشر آلاف المقاتلين بهلع في الصحراء، وبدا التفكير في الانتصار عقيماً. في هذه الأثناء، حيث يجد النبي جيش قريش العظيم قد انكسر، وأنصاره الّذين انتصروا في أهوال المعارك قد تركوه وحيداً في فوهة الوادي مع عدو يتعطش لدمه، وفرّوا، لم يفكر بشيء سوى الشهادة.

خرج العدو من كمائنه، وشكّل صفوفه في بطن الوادي وهجم بكل صفوفه هجمة رجل واحد، يصرعون المسلمين أرضاً

بوابل ضربات نبالهم وسهامهم وسيوفهم، يهرولون على أجساد قتلى المسلمين وهم يلاحقون الهاربين.

صمَّم النبي على اقتحام صفوف العدو بمفرده، ليغوص في قلب الجيش، طالباً الشهادة. أسرعت اللحظات، فأخذ محمد بزمام ناقته متوجهاً صوب العدو، وهو يلتهب غضباً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ولا يطيق صبراً على الشهادة. الاّ ان ابا سفيان الحارث بن عبد المطلب، ابن عمه، أمسك بزمام ناقته بقوة، وأوقف حركة المركب بكل ما استطاع من عزم.

اما عليّ بن ابي طالب، فبعد ان اضطرب الجيش واستولى العدو على ميدان المعركة وثب مسرعاً ليصل إلى النبي. وأخذ يطوف حوله طواف العاشقين، مرةً يهجم على العدو دافعاً عن النبي الخطر الداهم، وأخرى يلاحق الفارّين ويحول بينهم وبين الانهزام، ثم يعود إلى النبي ويستأنف طوافه!

لقد سجل التاريخ أسماء اولئك الذين ثبتوا مع النبي في تلك اللحظات الصاعقة، الذين ثبتوا ليموتوا معه...

دقائق وتنتهي الحرب لصالح العدو. فجأةً أناخ النبي ناقته البيضاء، وأخذ حفنة من التراب فألقاها في وجوه العدو، وقال: شاهت الوجوه، (حم... لا يُنصرون).

نادى الأصحاب، وهم يفرون من كل جانب: إلى اين ايها الناس؟ وقال لعمه العباس، وكان رجلاً جسيماً، جهوري الصوت:

يا عباس! صح: يا أهل بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة!

فنادى العباس بصوته الجهوري نداءً من الأعماق، فملأ نداء النبي الوادي، وطرق آذان الهاربين.

ثاب المدنيون الشجعان لأنفسهم، واستذكروا انهم حتى ذلك الحين كانوا يشكلون سنداً حصيناً للنبي، وأنه يناديهم وحدهم الآن من بين اثني عشر الف مقاتل، منهم الفان من قومه وذويه، وأنه يتطلع لنصرتهم... فوثبوا صوبه وصمدوا في الميدان.

عاد المدنيون إلى النبي، وهم يهتفون: لبيك، لبيك.

انكشف ضوء الصباح، وأخذ النبي بنفسه قيادة الجبهة الجديدة التشكيل مقابل سيل العدو المهاجم، وأخذ يرتجز ويقاتل مع أنصاره، الذين عادوا لتوهم يدافعون عنه، ودافعهم الوحيد الشوق للشهادة. تغيرت المعادلة، ونتائج المعركة بسرعة.

أبدى المسلمون شجاعة مدهشة انتقاماً لشهدائهم الكثيرين الذين سقطوا على أرض المعركة، وجبراناً للإنكسار والهزيمة قبل لحظات، فعادوا على أمل بالانتصار.

وشيئاً فشيئاً تشتد عزائمهم ويمضون للأمام، والعدو يقاوم مقاومة شديدة؛ جاهداً ان لا يضيع النصر الذي حصل عليه.

أخذت مقاومة العدو بالضعف شيئاً فشيئاً. وبغية ان يطمئن النبي بانتصاره العاجل وهزيمة العدو النهائية أعلن: ان من قتل كافراً

فله سلاحه وثيابه. فطار فرحاً الآلاف من البدو ـ حديثي العهد بالإسلام ـ في قلب المعركة. واختلطت سيوف المهاجرين والأنصار ـ التي تقرع في سبيل الله والحق ـ بسيوف القبائل البدوية ـ التي تقاتل من أجل الثوب والسيف ـ ففتّتت صفوف العدو المتماسكة.

أصدر النبي أمراً بملاحقة العدو حتى دياره. وكان يبتغي ان يبقى مصير هؤلاء عبرةً للمتآمرين؛ فيلغي من مخيلة القبائل المعادية هوس المقاومة في مواجهة الإسلام، ويهيء الأرضية لتحقيق هدفه السياسي:

فهو يريد بالقضاء على استقلال القبائل بناء مجتمع يقوم على أساس رسالة فكرية مشتركة، ويبتغي استقرار نظام سياسي مقتدر ومتماسك، يصيِّر القبائل المتشتتة والمتناحرة أمة واحدة.

اذ لا بد من بناء معقل ثابت قوي في زاوية من أرض العالم؛ لكي تنتشر رسالة الإسلام في أرجاء العالم.

إضافةً إلى ذلك، فقد كان النبي مدركاً للفرق الكبير بين الجيش المؤلف من اثني عشر الف مقاتل اليوم، وبين جيش بدر المؤلف من ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتل. فالأكثرية الساحقة لذلك الجيش رجال لا يفكرون بسوى الله، يقاتلون من أجل الحق والعقيدة، ويقدمون أموالهم وأنفسهم بسهولة في هذا السبيل.

اما اليوم فقد التفّ حوله رجال لأجل الحصول على الغنائم

والأسرى، أو التحقوا به خوف الأسر وغنيمة أموالهم. ومثل هذا الجيش لا يتحمل هزيمة، ولا يحكّم علاقتهم بالإسلام، ولا يعمق الإيمان في نفوسهم الواطئة المهزوزة سوى الانتصارات العسكرية والسياسية والاقتصادية المتلاحقة.

كان النبي قلقاً من ان يشكل العدو جبهة جديدة في مواجهته، أو أن يصل إلى الطائف ذات الحصون المنيعة؛ من هنا أصدر أمراً بالملاحقة والقتل.

تجمع الهاربون من جيش العدو في عدة نقاط، وأخذوا يقاومون بشدة، ولكن بعد فوات الأوان. ولم تتح لهم ملاحقة المسلمين السريعة فرصة إعادة تنظيم صفوفهم.

اما مالك بن عوف البطل الرئيس، فقد وصل بجيشه إلى الطائف وتحصّن فيها. وكان ذلك خطر عظيم.

أدرك النبي ان القصة لم تنتهِ بعدُ، وهو مضطر للعودة إلى المدينة. وبذلك ستذهب كل ثمار انتصاراته السياسية والعسكرية أدراج الرياح، بل حتى مكة سوف تسقط.

أصدر أمراً بترك الأسرى والغنائم في «الجعرانة»، ومتابعة مالك فوراً. وقد كانت قلاع الطائف حصينة، و«ثقيف» قبيلة عصية ومقتدرة.

وبمجرد ان اقترب جيش محمد من الطائف نزلت النبال على رؤوسهم كالمطر، وسقط منهم في أول مواجهة ثمانية عشر رجلاً.

فوراً أمر النبي بالابتعاد عن مدى مرمى العدو. وقد بعث قبل ذلك «طفيل الدوسي» إلى قبيلته ليتعلم منهم فن الضرب بالمنجيق واستخدام الدبابة. فعاد ومعه سلاح هدم القلاع المتقدم، الذي لم تعرفه العرب من قبل. لكن رجال «ثقيف» أخذوا بقذف الدبابة «وهي، آلة يدخلون في جوفها تقيهم النبال والسيوف، ويندفعون بها نحو الحصون» بقطع من الحديد المحمية بالنار، فأحرقوها. وبالتالي لم ينفع المسلمين هذا السلاح.

بدت حصون «ثقيف» والمتحصنون فيها عصية على الفتح، أو على الأقل ان فتحها يحتاج إلى زمن طويل جداً.

ومحمد بعيد عن المدينة كثيراً، إضافةً إلى انه لا يستطيع ان يبقي آلاف المقاتلين الذين لا تجانس بينهم متجحفلين حول الأسوار إلى مدة تطول. وكان الخطر الداهم الذي يهدد جيشه مشكلة الغذاء والعلف. فقد بدت ملامح المجاعة منذ الأيام الأولى.

كما كانت هناك جماعات كثيرة تلح في العودة إلى «الجعرانة».

ولكن كيف يترك «مالك» و«ثقيف» القبيلة اللجوج، ويعود من هذه القلاع دون اية نتيجة؟

أعلن النبي: انه سيعفو عن كل وافد اليه من الحصون. . . وكان يأمل بهذا الإعلان ان يغتنم موالي ثقيف، واولئك الذين يخافون من الانكسار والأسر هذه الفرصة.

ولكن لم يلتحق به سوى عشرون رجلاً، وقد أطلعوه على ان ثقيفاً تملك من الذخائر والمؤن ما يكفيها لمدة طويلة.

انعدمت السبل، فالعودة تشكل خطراً على المسلمين، والانتصار مستحيل، فماذا ينبغي ان يُعمل؟

آخر وسيلة هي: تقطيع أشجار الكرم «العنب» وحرقها. فناشدوا النبي أن يأخذه لنفسه أو يدعه لله والرحم وان لا يحرقوها.

وحينها أدرك المسلمون ان عرب ثقيف ليسوا كيهود بني قريظة... وفوراً أصدر النبي أمراً بالتوقف عن ذلك.

انعدمت الحيلة، واقتربت الأشهر الحُرم، وأضحى البقاء بلا جدوى، وأصبح النبي مدركاً ضرورة العودة، لكن تحمل مثل هذه العودة كان أمراً قاسياً عليه.

وأخيراً استطاع ان يتخذ القرار؛ فأعلن انه ذاهب إلى مكة لأداء مناسك العمرة، على ان يعود بعد انصرام الأشهر الحُرم.

النبي في مضيق الجعرانة، وبها: ستة آلاف أسير، وما لا يُعدُّ ولا يحصى من الشياه والإبل!

أرسلت هوازن «زهير ابا صرد» نيابة عنها إلى النبي، فجاءه وقال له: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك[1] ولو انّا كنا قد أرضعنا الحارث بن ابي شمر «ملك

(١) مرضعة النبي حليمة السعدية تنتسب الى بني سعد وهي احدى طوائف هوازن.

الغسانيين» أو النعمان بن المنذر «ملك الحيرة»، ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين!

فقال النبي: «اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، واذا ما انا صلّيت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: انا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا». ففعلوا، فقال النبي: «وأمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم».

فقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله.

الاّ ان الأقرع بن حابس قال: أما انا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: اما انا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: اما انا وبنو سُلَيم فلا، غير ان بني سُليم قالوا: بلى؛ ما كان لنا فهو لرسول الله. ثم قال النبي: «أمّا من تمسك منكم بحقِّه من هذا السبي، فله بكل انسان ست فرائض، من اول سبي أصيبه».

وبذلك تحرر أسرى هوازن بلا مقابل. فدنت قلوب أكبر وأخطر قبيلة في شبه الجزيرة من الإسلام.

وفي تلك الأثناء بعث النبي لمالك بن عوف خبراً: انه ان أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل.

لقد طمأنت هذه الرسالة وأخبار السمو في التعامل الذي أظهره محمد مع قبيلة هوازن فارس ثقيف اطمئناناً كاملاً، وبلا تردد

خرج من بين قومه، ودخل الإسلام. وارتفع أكبر عوامل الخطر من محيط الطائف.

عفا النبي عمّا لا يحصى وأظهر تسامحاً وصفحاً أثناء توزيع الغنائم؛ بغية تأليف القلوب، إلى حدٍ أغضب الأنصار، وتساءلوا عن حصتهم. ولم يتوقع النبي هذا الموقف منهم، فتألم بشدة وقال لهم: «الا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله. . .» فبكى الأنصار.

وبعد ان أتم النبي مراسم العمرة ترك على حكم مكة عتاب بن آسيد، وأمر معاذ بن جبل بتعليم الناس، وعاد إلى المدينة أواخر ذي القعدة، أو أوائل ذي الحجة.

السنة التاسعة من الهجرة:

ورود الوفود: أضحى الإسلام قوة تمتد ظلالها على أرجاء الجزيرة. وصارت هذه السنة في تاريخ الإسلام «سنة الوفود». فقد كان مسجد المدينة يشهد كل يوم قدوم الشخصيات والوفود، التي تعلن عن تحالفها مع محمد نيابةً عن قبائلها. وقد كان النبي يطرح عليهم بعبارة واضحة بسيطة أصول عقيدته وأحكام دينه، ليعلن بذلك ضمهم إلى أمته، ويفصح عن الالتزام المشترك سياسياً واجتماعياً وعسكرياً مع رؤساء القبائل.

ان لقدوم كل وفد من هذه الوفود إلى المدينة، وتفاصيل مباحثاته مع النبي وتعامله مع المسلمين، قصة كاملة مثيرة بنفسها،

الا اننا نأسف لضيق مجال بحثنا عن بيانها.

الحدث الظريف في هذه السنة هو لجوء «كعب بن زهير» الشاعر العربي الشهير، الذي هاجم الإسلام وهجا محمداً، وكان فاراً من ملاحقة المسلمين:

تحت ظلال الصبح المشرق، وبعد ان أتم المصلون صلاة الصبح، جلس كعب أمام النبي وقال له: يا رسول الله ان كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل انت قابل منه إن انا جئتك به؟ قال النبي: نعم. فقال: انا كعب بن زهير يا رسول الله! ثم ألقى قصيدته المعروفة: «بانت سعاد. . .» والتحق بصفوف المسلمين.

غزوة تبوك: ان قوة محمد المتنامية أخذت تخيف الخصوم. وفي هذه السنة وصلت الأخبار ان الروم في الحدود الشمالية هيأت جيشاً كبيراً، وهي تستعد للهجوم. وقد دخل العرب فصل الخريف حيث حرارة الجزيرة القاسية. أصدر النبي للقبائل أمراً بالحركة، وحيث انه كان على وعي بطول الطريق وصعوبة السفر أعلن منذ البدء ـ خلافاً لعادته العسكرية ـ عن الطريق والهدف، وسعى في الوقت ذاته إلى تعبئة أكبر عدد ممكن لمواجهة الرومان؛ واكتساحهم ومسح ذكريات «مؤتة» من الأذهان. اما المنافقون الذين كانوا على علم بوعورة الطريق وخطورة محاربة الامبراطورية الرومانية، فلم يكتفوا بتمزيق معنويات الناس، بل أخذوا بالتخطيط المنظم السري للتآمر والحيلولة دون تعبئة الجيش، فعقدوا

الاجتماعات في بيوت سرية لتحقيق هذا الغرض؛ وقد أدرك النبي آنذاك ان المرونة معهم تعني خطراً داهماً، فأصدر أمراً بإحراق البيوت التي يتخذها المنافقون مراكزاً للتآمر، وبذلك ارتفع الخطر الداخلي، وخمد المنافقون.

سلك الجيش العظيم الذي يتقدمه عشرة آلاف فارس طريق البيداء المخيفة والملتهبة نحو الشمال، وقد تعهد محمد ـ وهو ابن ستين عاماً ـ قيادة الجيش «جيش العسرة».

وحينما وصل الجيش الاسلامي «تبوك» وصلت الأخبار: ان الرومان انسحبوا منهزمين أمام محمد إلى داخل أراضيهم. مكث النبي عدة أيام في مشارف الروم الحدودية، وعقد المعاهدات مع القبائل الحدودية التي كانت أدوات بيد السياسة الرومانية.

وجاءه حاكم «ايله»، وقد كان مسيحياً، مذعناً لأنذاره: «اما التسليم واما الحرب»؛ فاستسلم وعقد معاهدة الصلح التالية مقابل دفع جزية ثلاثمائة دينار سنوياً:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنّة بن رؤية وأهل ايلة، سُفنهم وسيَّارتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، أهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فانه لا يحول ماله دون نفسه، وانه طيب لمن أخذه من الناس. وانه لا يحل ان يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر».

ثم أهدى النبي رداءاً يمانياً ليوحنة «حاكم إيلة» كدلالة على

الموافقة بالصلح. . . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته وبعد ان توفرت حكومة الإسلام على قوة كبيرة وتحملت مسؤولية ضخمة، أخذ النبي بإرسال عماله إلى سائر أرجاء الجزيرة، لكي يستحصلوا الزكاة من المسلمين، والجزية من غيرهم. وقد كانت كل القبائل تستقبل عمال النبي برحابة صدر الا قبيلتين.

كان موت «عبد الله بن أُبيّ» أحد الانتصارات التي تحققت للمسلمين في هذه السنة، حيث القضاء على عنصر النفاق الخطير الذي لم يهدأ لحظة عن النفاق والتآمر منذ دخول النبي إلى المدينة. على ان النبي استخدم معه اسلوب المداراة؛ وقد أدت هذه السياسة إلى عزله اجتماعياً وتزلزل مكانته. وقد أقام النبي صلاة الميت على جنازة «بن أُبي» وشارك في مراسم دفنه.

وكانت وفاة ابراهيم الابن الوحيد للنبي في هذا العام ايضاً، وقد أحزنته هذه الحادثة بشدة. وصادف ان كسفت الشمس في ذلك اليوم فقال المسلمون: ان الشمس كسفت مواساةً لمحمد! فكذّب النبي ذلك وقال: ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد من الناس؛ فاذا رأيتم مثل ذلك فافزعوا إلى الله بالصلاة والدعاء.

وفي النهاية وجدت «ثقيف» نفسها قد حاصرها الاسلام من كل جانب، ورأت بطلها في «حنين» مالك بن عوف قد استسلم وبعث ممثله إلى المدينة. . . فوافقت بعد مباحثات مفصلة على استقبال مبعوث محمد لكسر صنمها المعروف «اللات»، وبذلك

يستسلم للنبي آخر حصن من حصون المقاومة الداخلية.

حلّ موسم الحج؛ وحتى ذلك التاريخ لم يشارك النبي الاّ في مراسم العمرة فقط، وكان ولا زال المشركون على تقليدهم الأول يشاركون المسلمين في الحج. فبعث محمد في هذا العام ابا بكر ومعه ثلاثمائة نفر إلى الحج، وأمر علياً بقراءة سورة البراءة على الملأ حين اجتماع الحجيج[١]، لكي يعلم المشركون ان الأحلاف الجاهلية قد نُقضت وان لا حق لهم بعد هذا العام في المشاركة بالحج. فقد أراد محمد ان يؤدي مراسم اول وآخر حجة له حيث طُهّر الحج ـ وهو مظهر قوة الإسلام المعنوية والسياسية ـ من لوث الشرك.

وفي آخر سنة من حياة النبي تجسد أمله باستقرار حكومة الاسلام السياسية والمعنوية في أرجاء شبه الجزيرة العربية.

---

(١) بعد نزول سورة (البراءة) قال النبي: لا بد أن أتعهد بإبلاغ هذه السورة بنفسي أو يبلغها رجل مني... ثم كلّف عليّ عليه السلام بهذه المهمة. كتب إخوتنا السنّة أن علياً كُلّف فقط بإبلاغ السورة، وعُهد الى أبي بكر بمهمة إدارة الحج.

إلا أن الشيعة يملكون دلائل كثيرة تثبت أن أبا بكر قد عُزل عن المهمة وكلّف علي عليه السلام بمهمة الإشراف على الحج فضلاً عن إبلاغ السورة.

كما قلت في مقدمة هذا الكتاب فقد استندت في نقل الرواية إلى مصادر الأخوة السنة.

محمد يموت

«محمد يموت»

يُلقي الانسان على شخصيته عادة نقاباً، يخفي به الكثير من خصاله، التي يمكن ان يراها الآخرون، الاّ في حالتين ـ حيث يميط غالباً اللثام الذي أخفى وجهه الواقعي طيلة حياته ـ: زنزانة السجن، وفراش الموت.

وفي هاتين الحالتين تتوفر للمراقب فرصة نادرة لكي يرى الوجه الحقيقي لأية شخصية: خصوصاً الحالة الثانية «فراش الموت».

ان الآدمي حينما يشم رائحة الموت تصفو روحه، وكل شخص «هو ذاته» في فراش الموت! ان رهبة الموت تكشف الآدمي تماماً، بحيث لا تترك أمامه مجالاً للرياء. فالحدث كبير جداً، حيث يضحى الآخرون معه صغاراً. فالروح المرعوب يخرج من مخبأه ـ الذي انزوى فيه عمراً كاملاً عن الأنظار ـ عارياً. . . فالموت يحطم سور هذا المخبأ.

الموت بنفسه فن ايضاً، وينبغي تعلمه كسائر الفنون. انه مشهد جميل وعميق بشدة، انه مواكبة جدية لميدان الحياة.

قليلٌ هم الذين ماتوا ميتة جميلة؛ لقد تفحصت التاريخ طويلاً إلى ان عثرت على اناس ماتوا ميتة حسنة، وعلى رجال ماتوا بجمال وعظمة.

ومن المقطوع به ان اولئك الذين يعرفون كيف يجب ان يموتوا يعلمون كيف يجب ان يعيشوا. اجل؛ فالذين لا يرون الحياة استمرار الأنفاس شهيقاً وزفيراً، لا يرون الموت عدم الأنفاس، بل هو بنفسه عمل، وفعل كبير، كالحياة.

ان ميتة الكبار ليست على نسق واحد ايضاً، فكل شخص يموت كما كان يعيش، يموت كما هو. احد أشهر حوادث الموت في التاريخ موت «وسباسين» امبراطور روما البطل، فحينما أُقعد في فراش الموت اخذ يعالج سكراته وقادة عسكره يقفون إلى جانب سريره، وعندما امتلكه الإحساس بأنه يلفظ انفاسه الأخيرة، نهض فجأة وصاح: «الامبراطور يجب ان يموت واقفاً».

ثم زهقت روحه على أكتاف قادة عسكره.

انه لعظيم جداً... الاّ ان هناك عيوناً ترى مظاهر جمال وعظمة، عميقة ولطيفة لا تبصرها العيون الغليظة. فهذه العيون تلتقط عظمة ميدان القتال وجمال السيف، وحسن الحرير، الاّ انها لا تبصر جمال طرازِ فكري ولطف تطلع علوي. وموت «محمد»

على هذا الغرار. فلم تزينه أنهار «الدماء» وصولات الخيول وصيحات الأبطال ورجز المبارزين؛ ومن هنا لم تره أبداً العيون ذات البعد الواحد[١].

كيف يمكن ان يكون لقاء محمد بالموت عادياً؟!

تقرأ هذا العام من خلال نظرات النبي وسلوكه وجهاده الاجتماعي المتواصل ـ كما هو منعكس على حياته الشخصية ـ نهاية حياته وبداية رحلته الأبدية.

ان القائد التاريخي العظيم، الذي عبّأ خلال ثلاث وعشرين سنة من الجهود المتواصلة المتظافرة جيوشاً قاهرة، يجب ان يرحل الآن إلى جبهة «الآتية».

الجيش الذي يستعد لخوض حرب كبرى، حرب دائمية وفي كل مكان مع الجهل والدناءة في الأرواح وحرب أخرى مع قيصر وكسرى.

لقد انتهى دور محمد الشخصي في رسالته العظمى ولا بد ان يرى جيشه للمرة الأخيرة، مرة أخرى ويكرر ما علّمه خلال ثلاثة وعشرين عاماً؛ ليقوم بعملية فحص عامة ومتابعة جادة للتفاصيل؛

---

(١) كتب راهب صيني على جدار معبد جميل هذه الجمل: أن العيون التي لا ترى جمال الوجه إلا بعد تلوينه، ولا تشعر بروعة جسم الإنسان إلاّ بعد تعريته، ولا يشم صاحبها رائحة إنسان ما إلا بعد سكب قنينة كاملة من العطر على جسمه، ولا يحس بمذاق الطعام إلاّ بعد إضافة شتى أنواع المواد اليه، كيف يمكن لمثل العيون أن تشخص جمال علوّ وطعم روحي وأنا أناجي معبودي في هذا المحراب؟!

اذ لعل هناك ما يستحق القول ولم يقله، أو أمراً قاله ولم يُسمع... لقد حسب حساب كل شيء وهو على أعتاب رحلته الكبرى.

بدأ العام الحادي عشر من الهجرة وتقترب حياة محمد المعطاء نحو نهايتها. وكان مشروعه الأول وداع الجماهير، وفي مكة، جوار الكعبة، بيت الناس.

أعلن قبل شهرين لكل المسلمين: ان منْ أراد أداء الحج معي فليأت إلى المدينة، لنتحرك جماعياً منها صوب الكعبة.

انه اول حج للنبي، وأول حجٍ للمسلمين، ليس فيه مشرك، ولأول مرة يتجمع حول المدينة أكثرَ من مائة ألف فرد، لرفقة النبي في حركته صوب مكة و... آخر حجة يؤديها النبي.

تركت الجموع المدينة في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة، وقد اصطحب النبي معه كل نساءه. أقاموا ليلاً في «ذي الحليفة»، ثم أحرموا سحراً، وتحركوا... فضجت الصحراء برنين نداء: لبّيك! اللهم لبّيك! لبّيك لا شريك لك لبّيك! انّ الحمد والنعمة لك والملك! لا شريك لك لبّيك! فلم تشهد السماء حتى ذلك اليوم مثل هذا المشهد على وجه الأرض. أكثر من مائة الف رجل وامرأة ـ تحت شمس الجزيرة المحرقة، وعلى أرض الصحراء الصامتة المخيفة، التي لم يسمع التاريخ باسمها ـ يطوون الطريق متجهين صوب قبلةٍ واحدة. وليس هناك اية دلالة على اختلاف وتميز الشعوب المتعددة التي يتألف منها هذا الجمع، فاللّون لدى الجميع واحد: البياض، ولباس الجميع واحد: مِئزر

يلفون به أسفلهم، وقطعة قماش أخرى يلقونها على عواتقهم.

ان في هذا الميدان عرضاً جميلاً للون واحد يلوّن حياة الإنسان، انه عرض لمساواة أفراد الإنسان بعضهم للبعض الآخر، فلا مزية لأحدٍ على أحد، فلباس الجميع تُحرم خياطته ليُغلق الطريق أمام اي بروز وتشخّص. ان الجميع هنا «انسان»، ولا غير. فقد أُلغيت في «ذي الحليفة» كل العلامات والمشخصات والمزايا.

يمضي محمد ويمضي معه أكثر من مائة ألف مسلم بلون واحد ولباس واحد، والعالم والتاريخ يرقب بدهشة!

والتاريخ... هذا الشيخ الممتهن في خدمة البلاط، قصّاص حكايات فرعون وكسرى وقيصر. المدّاح الكذوب لكل سلطان، القصة العميلة التي انشغلت بالخُلع والعساكر ومجالس اللهو، الذي لم تطأ قدمه ولا مرةً واحدة أزقة المحرومين، ولم يَطُلْ - على طول عمره المديد - ولا مرةً واحدة على ضحايا الفقر والمعاناة والظلم، التاريخ يرقب محمداً والماضين معه - مرّةً اخرى - باستغراب!

عجباً! ما هذا الجيش؟ «القائد احسر والجنود حاسرون»، لقد كان يسعى من «ذي الحليفة» خلف هذه «الأمة»، وقد سمع ان السلطان مع العسكر، لكنه كلما فتش عنه لم يجده!

دخلوا مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة، فهجم الجميع صوب الكعبة. وقد اجتمع هناك: الله، ابراهيم، الكعبة، محمد والناس.

لقد جاء محمد ليعرض بين يدي ربه ـ في أواخر ايام حياته ـ عند مقام ابراهيم «ابو الحنيفية في تاريخ البشر» نتائج جهوده المضنية والمثيرة. وبين يديه يطلب من الناس ان تشهد: انه لم يترك سعياً ولم يألُ جهداً في سبيل اداء رسالته.

وليُعلِمَ ابراهيم ان العمل الخطير، الذي بدأه في حياة البشر قد وصل به إلى هذا الحد، وأرساه على هذا النهج.

وليقدم درساً لـ «تاريخ الغد»: ان «الأمة» هي هذه، وان حياة الإنسان على وجه الأرض يجب ان تكون هكذا، ثم يتحدث للمرة الأخيرة مع الجماهير، فيلتقيهم ويودع الجميع، وتودع الجماهير ايضاً آخر أنبياء الصحراء فتنتهي الحكاية المثيرة لأولئك الرعاة المرسلين، الذين انطلقوا غالباً من قلب الصحراء، وثاروا على الآلهة المزورة المصطنعة.

بعد الطواف، صلّى ركعتين في مقام ابراهيم، ثم لثم الحجر الأسود مرةً ثانية، فاتجه صوب الصفا وسعى بينه وبين المروة. وأعلن في الناس: من لم يسق هدياً فليحلل احرامه، ويجعلها عمرة.

كان هذا الاعلان ثقيلاً على كثيرين، وترددوا في تنفيذه، فغضب النبي لذلك.

لقد كان الموقف عصيباً على كثيرين؛ كما اضطرب النبي بشدة، وتغير لونه ألماً، وقال بلغةٍ تهتز غضباً: افعلوا ما آمركم به.

ودخل خيمة عائشة وسألته وهي مرتبكة: من أغضبك؟ فأجابها بغضب مشوب بعتاب: «كيف لا أغضب؟ وانا آمرهم ولا يطيعون؟» دخل في هذه الأثناء صحابي على النبي ووجده حزيناً بشدة، فقال له متأسفاً: يا رسول الله أحرق الله من آذاك في النار، فقال له النبي: «الم تر اني آمر الناس بعمل، وقد ترددوا في أدائه؟ لو كنت أعلم لما اصطحبت معي الهدي، ولأحللت كما أحلّوا. . .»[١].

أدرك الناس ان النبي تأذى بشدة، فخجلوا لما قاموا به وأحلوا إحرامهم مسرعين كما أحلّت فاطمة ابنته وسائر نسائه.

التاريخ! خادم الارستقراطية هوى مرةً أخرى في دوامة الحيرة! ماذا يفعل الملك؟ فلديه أكثر من مائة ألف تابع اذن؛ لِمَ لا يسوق المخطئين. . .؟ اين الجلاّد؟ لِمَ لا يصدر أمراً بالإبادة العامة؟ كيف يدير هذا الملك الحكم؟ بأية وسيلة استطاع ان يستلم هذا الملك؟ فهل يمكن ان يُستلم الحكم بغير ابهة وجلال وبذخ؟!

نعم يمكن ان يستلم، فقد جاء هذا الرجل الأُميّ ليُعلِّم هؤلاء، فما الذي يعرفه معلمو مدارس روما وأثينا والمدائن وبُناة المدنيات الكبرى في الشرق والغرب؟! حيث ان هؤلاء لم يكن لهم استاذ في مدارس السياسة الاّ الذئب والثعلب.[٢]

---

(١) نقلت هذه الرواية المضمون. (المترجم).

(٢) يجب ان يكون الحاكم في المدرسة الميكافيلية أسداً أو ثعلباً. وحيث أن الأسد حسن الصيت لدينا، فإني أجد الذئب أقرب لهدف ميكافيلي.

عاد «عليّ» من مهمته. التي بعثه النبي بها إلى اليمن فوافى النبي في مكة فدخل إلى خيمة فاطمة بنت محمد فوجدها قد حلّت إحرامها فقال: ما لكِ يا بنت رسول الله. قالت: أمرنا رسول الله ان نحلّ بعمرة فحللنا.

ثم أتى علي النبي وقدم له تقريراً عن سفره وبعد ان فرغ علي من تقديم تقريره، قال له النبي: انطلق فطُف بالبيت، وحلّ كما حلّ أصحابك؟ قال: يا رسول الله اني أهللتُ كما أهللتُ فقال: ارجع، فاحلل كما حلَّ أصحابك.

قال علي ملتمساً: يا رسول الله اني قلتُ حين أحرمتُ: اللّهم اني أُهِلُّ بما أَهلَّ به نبيك وعبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وآله. نظر النبي(ص) في وجه علي لحظة وقال: فهل معك من هدي؟ قال: لا. فأشركه رسول الله(ص) في هديه. فبقي على احرامه مع رسول الله حتى فرغا من الحج، ونحر النبي عنهما.

وفي تلك الأثناء قدَّم الجيش العائد من اليمن مع علي شكوى إلى النبي. ذلك ان علياً لما أقبل إلى مكة من اليمن تعجل للقاء النبي، واستخلف على جنده رجلاً ممّن معه، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حُلَّةً من البز الذي كان مع علي، فلما دنا جيشه خرج علي ليلقاهم، فاذا عليهم الحُلل، قال علي للرجل: ويلكَ! انزع قبل ان تنتهي به إلى رسول الله. فقام الرجل فانتزع الحلل من الناس فردّها إلى حيث كانت. فأظهر الجيش استياءً من فعل علي فشكوه، فقام النبي خطيباً: «ايّها الناس، لا تشكوا علياً،

فوالله انه لأخشن في ذات الله «او في سبيل الله من ان يُشكى».

يوم التروية:

ذهب الحجيج في الثامن من ذي الحجة إلى «منى»، ثم توجه النبي راكباً صباح اليوم اللاحق إلى عرفات.

كان يريد ان يتحدث لكل الناس. وقد كان واضحاً على النبي انه يفكر بأمرٍ خطير.

ارتفعت الشمس في وسط النهار كأنها تمطر نيراناً محرقة على الرؤوس. وقف النبي بين أكثر من مائة الف رجل وامرأة يلتفون حوله. عهد إلى «ربيعة بن امية بن خلف» في ترديد كلماته بصوتٍ مرتفع. وكان آخر نداء للنبي لأُمته، فيجب ان يسمعه الجميع، ويجب ان تصل مفرداته تباعاً إلى أقصى الجموع.

كل شيء يبدو غير عادي: اللحظة التي أُختيرت لهذا العمل، والمكان، وحالة النبي ووضعه، وخصوصاً السياق الخاص الذي اختاره لخطابه.

ابتدأ النبي خطابه: قل «الخطاب موجه لربيعة بن امية»: ايها الناس ان رسول الله يقول «هل تدرون اي شهر هذا؟ كرر ربيعة قول النبي بصوت مرتفع. انتظر النبي، وشعر الناس ان عليهم الإجابة. فقالوا: الشهر الحرام.

ثم مضى النبي في خطابه: قل «لربيعة» لهم: ان الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا.

«ثم قال»: قل ان رسول الله يقول ايها الناس فهل تدرون اي بلد هذا. . . فيرفع ربيعة صوته وينتظر النبي جواب الناس فيقولون: البلد الحرام.

ثم قال: قل «لربيعة» ان الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا.

ثم قال: قل «لربيعة» ايها الناس هل تدرون اي يوم هذا. فكرر ربيعة قول النبي وقال الناس: يوم الحج الأكبر.

ثم قال: قل «لربيعة» ان الله حرم عليكم أموالكم ودماءكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

ثم يواصل النبي خطابه على نفس النهج:

«ايها الناس: اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابداً. . . ايها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلّغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها. وان كل ربا موضوع ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله انه لا ربا وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وان كل دم كان في الجاهلية موضوع، وان اول دم أُضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. . . فهذا اول ما ابدأ به من دماء الجاهلية.

ايها الناس: ان الشيطان قد يئس من ان يُعبد بأرضكم هذه ابداً ولكنه رضي ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم

فاحذروه على دينكم.

ايها الناس «انّ النسيء زيادة في الكفر يضل به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله» ويحرموا ما أحلّ الله.

ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض و«انّ عدة الشهر عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حُرُم» ثلاثة متوالية ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان[(١)].

اما بعد ايها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولهنّ عليكم حقاً؛ لكم عليهن الاّ يوطئن فرشكم احداً تكرهونه، وعليهن الاّ يأتين بفاحشة مبينة، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا ايها الناس واسمعوا قولي فاني قد بلّغت وتركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه[(٢)].

---

(١) إشارة الى ما كانت ربيعة تعتبره رجباً وهو شهر رمضان.

(٢) لا نرى وجود أي تفاوت بين هذا التعبير الذي نقله الطبري وابن هشام عن النبي صلى الله عليه وآله وبين الروايات المتواترة الأخرى التي جاء فيها «عترة نبيه» بدل «سنّة نبيه»، لأن السنة تؤخذ عموماً من العترة، وان الرجوع الى العترة من أحكام وأوامر السنة.

ايها الناس اسمعوا قولي فاني قد بلغت، واعقلوا تعلَّمُنَّ ان كل مسلم اخو المسلم، وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىءٍ من اخيه الاّ ما أعطاه من طيب نفس، فلا تظلموا انفسكم».

وبينا كذلك طلع النبي بمحياه الذي أنارته شمس الظهيرة ـ كأنه قد أتم عملاً خطيراً ـ وهو يرمق المساء، ويتساءل:

«اللّهم هل بلغت؟»

كرر ربيعة ذلك الى الناس، فانطلقت عشرات آلاف الحسرات بقولهم: نعم.

ثم رمق النبي ببصره ما رمق اول مرة: وقال:

«اللّهم أشهد»!

انتهى حج الوداع، وترك محمد مكة متجهاً صوب المدينة، وترك وراءه خواطر ستبقى حية على الدوام في التاريخ.

أنجز النبي آخر مهمة كبرى. وترك أكبر رجال التاريخ ـ وهو ينهي بظفر أداء أخطر رسالة في تاريخ الدنيا ـ مسقط رأسه الى الأبد، ليموت بين أنصاره الأوفياء، مطمئن الوجدان، بروح ملؤها التوفيق.

مستقبل الأمة:

اقتُلعت جذور الشرك من سائر أرجاء شبه الجزيرة، وطُهر بيت الناس «الذي بناه ابو الحنيفية» من رجس الأوثان، واستقرت

حكومة الله والناس في حياة الجماعة المتآخية. الا ان محمداً كان أوعى من ان يغشى رؤيته النافذة بريق الانتصارات، فهو يعرف مجتمعه جيداً أكثر مما يعرفه اي شخص آخر، ويرى بوضوح نيران النفاق، وأحقاد القبائل، وبقايا العرقية، والجهل، وأخلاق الجاهلية بعامة، التي أختفت تحت ستار الاتحاد، الذي صنعته قوة الإيمان والسيف والسياسة.

فهو يعرف انه رغم تمكن قدرته القيادية ونفوذه المعنوي من ادخال كل رؤساء القبائل وأشراف قريش تحت لواء الإسلام، لكن تربية النفوس، ورسوخ الإيمان الجديد في أعماق قلوب وعقول امة، ونضج الوجدان الديني لنفوس ليس بينها وبين الجاهلية أكثر من عشر سنين، بحاجة ـ دون شك ـ الى زمن طويل، ولا بد من مرور أجيال. . .

لقد كان النبي يشعر بالخطر منذ البدء، الاّ انه كان يزداد خوفاً على مستقبل هذه الأُمة الشابة ـ التي لبست ثوب الأخوة العقائدية جديداً، والتي يملأ طلعتها بريق الانتصارات المتلاحقة ـ كلّما اقترب به الأجل.

ان الأب سيترك هذا العالم عاجلاً. . . لكن ما هو مصير هذا الطفل الذي يبلغ من العمر عشر سنين، والذي تعشعش في داخله جراثيم مئات الأمراض، والذي يجب ان يقف على قدميه، متكئاً على نفسه، بعد فقد ابيه، مقاوماً رياح الأحداث القاسية، التي ستهجم عليه من كل صوب؟

امبراطوريتان مسلحتان تقفان على جانبين، وتسنّان الأنياب لافتراس هذا اليافع، الذي سيفقد وليه قريباً. وداخل شبه الجزيرة كان ابو سفيان ومعاوية وأشباههما، ومنافقون آخرون يتربصون الفرصة بخفاء، وكان مسيلمة والأسود العنسي يجهران بالعداء. . .

لكن محمداً لا يخاف العدو ابداً مهما كان قوياً، وحياته السياسية تدل على هذه الحقيقة، والقرآن الكريم ايضاً يتحدث في أكثر من موقع عن غلبة الفئة القليلة.

انما الذي كان يُقلقه: الخطر الداخلي المتمثل في النفاق والفرقة: إحياء الروح الجاهلية في قلب المجتمع الإسلامي وإثارة المطامح الشخصية.

ومما لا شك فيه ان «محمداً» ـ في الحد الأدنى ـ، وكأي قائد لنهضة كبرى، وكأي زعيم اجتماعي يفكر هذه اللحظات بعمق في مستقبل أمته، والأخطار التي ستهددها. . . ولا بد ان يفكر.

فماذا سيكون مصير هذا المجتمع الجديد بعد محمد؟ . . . مجتمع لم تترسخ سننه السياسية بعد، ولم تتعمق جذوره الاجتماعية. . . مجتمع لا تزال القيم والأصول القبلية قوية فيه. . . ورؤساء القوم يفتقدون لأية تجربة سياسية وثقافية ومدنية على مستوى الحكم. . . كما ان نموهم السياسي لا يلبي حاجة القيادة الاجتماعية التي تتميز بسرعة نموها. قضايا حياتية خطيرة كانت هموماً شاغلة لمحمد في تلك اللحظات.

فمن سيمسك بعده بزمام هذه القافلة الكبرى؟

فهل يجب على النبي ان يجيب على هذا الاستفهام؛ ام ليس عليه هنا اية مسؤولية؟

وهل ان جماهير العرب ـ التي بلغت آنذاك حداً من الرشد السياسي ـ ستعفي قائد مجتمعها والمفكر الايديولوجي لذلك المجتمع وصاحب رسالته(١) بشكلٍ كامل من هذه المسؤولية؟

هل الديمقراطية هي الحل؟ وهل وصلت الأوس والخزرج وقريش وهوازن وغطفان وثقيف. . . الى المستوى الذي يؤهلها ان تمسك بمصير مجتمع، لم يتجاوز عمره ثلاثة وعشرين عاماً، فتحكم ديمقراطياً ـ على ان الديمقراطية لم تعثر حتى الآن في اوروبا الغربية، وبعد قرنين من الثورة الفرنسية الكبرى على مجتمع مؤهل لفهمها وهضمها؟

ومن هو الأقدر على تشخيص القيادة المستقبلية لهذه الأمة: «محمد»، ام الجماهير القبلية، بل حتى سعد بن عبادة وابو عبيدة الجراح وعبد الرحمن بن عوف وعمر وابو بكر وعثمان وطلحة وسعد والزبير؟

(١) المفكر الايديولوجي. . . ان موقع محمد كمفكر ايديولوجي في مجتمعه يتضمن معاني كبيرة. حيث أن أكثر النظم ديمقراطيةً تبيح لمفكر الثورة أو النظام ما لا تبيحه للقائد السياسي. فالمفكر لا ينتخب بالتصويت العام. وعالم اليوم يعطي حقاً كاملاً لأمثال كارل ماركس في ان يقدم انجلز للناس بوصفه أكبر مفكر اشتراكي بعده. .

ان الطريقة التي تم فيها انتخاب الخلفاء الثلاثة (ابو بكر وعمر وعثمان) ـ والتي تشبه الى حد بعيد «الديمقراطية الغربية» التي فقدت الشعوب ثقتها بها في السنوات الأخيرة[١] ـ بينت مدى قدرة الناس في ذلك المجتمع العربي على الاستغناء عن تدخل النبي المباشر في رسم مصيرهم السياسي[٢].

استعرض النبي الوجوه التي يحتمل ان تمسك بزمام الأمور بعده. وهو يعلم جيداً ان مفاهيم المساواة الإنسانية والأخوة الإسلامية ومقياس التقوى والعلم والجهاد رغم رسوخها في عقول المسلمين والصحابة الأوائل، ورغم اعتقادهم القاطع بها، لكنها لم تنفذ بعدُ الى عمق احساسهم ووجدانهم الأخلاقي، ولم تمتزج بعد بكيانهم الروحي؛ حيث ان الإحساس ابطأ تغييراً ـ غالباً ـ من الاعتقاد.

---

(١) لأجل الإطلاع على أفكار الدكتور شريعتي في هذا المجال، راجع كتاب: الأمة والإمامة.

(٢) وبالأخص بعد الحرب العالمية الثانية حيث اندلعت الثورات في أرجاء آسيا وافريقيا وامريكا الوسطى وظهرت الشعوب الشابة في هذه القارات الثلاث. كما أن قادة الثورات الاجتماعية والمعادية للاستعمار اعتقدوا بعد تجاربهم المرة ان الديمقراطية تشكل عامل ركود وضعف وتكوين السنن المنحرفة. فضلاً عن أن العدو الخارجي المقتدر وعملاءه في الداخل يستفيدون منها ويسخرونها للقضاء على مكاسب الثورة أو تحجيمها او مسخها. إن الديمقراطية في المجتمعات الثورية الشابة لا تشكل سوى لعبة خداعة لا يربح فيها إلاّ أعداء الديمقراطية والخاسر الوحيد فيها هو الثورة نفسها. إن ظهور الفاشية في قلب الديمقراطيات الغربية تمثل عاملاً آخر لتفصيل «الديمقراطية الملتزمة» عليها اليوم خلافاً لما كان عليه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت الديمقراطية تشكل عقيدة المفكرين والمثقفين المحبين للإنسانية.

في هذا الضوء، فمن المقطوع به ان الوجوه التي ستحتملها الناس للإمساك بزمام الأمور في المستقبل هي تلك الوجوه، التي يجري في عروقها الشرف الجاهلي، والتي تنتمي الى الأسر ذات الاعتبار الاجتماعي. الوجوه التي لم تقتصر في بناء مقومات شخصيتها وجاذبيتها على الله والإيمان والجهاد والتقوى والسابقة في الإسلام فحسب؛ اذ مما لا شك فيه ان آثار الجاهلية الروحية والعاطفية والوجدانية لا تزال تفعل فعلها لا شعورياً في شخصية الجماهير.

من هنا ستُجمع الجماهير قطعاً بعد وفاته على رجال القوم وأشرافهم: ابو بكر بن ابي قحافة ـ شيخ قريش، وشريف بني تيم. عمر بن الخطاب ـ شريف بني عدي. سعد بن عبادة ـ شريف الخزرج ـ عثمان بن عفان ـ الرجل المحظوظ، الذي ينتسب بطريقين. عبد الرحمن بن عوف ـ شريف بني زُهرة وسعد بن ابي وقاص. ابو سفيان بن حرب، ومعاوية بن ابي سفيان ـ رؤوس بني امية ـ اقوى قبائل قريش ومكة. العباس بن عبد المطلب، وعلي بن ابي طالب ـ الوجوه المتألقة في بني هاشم.

كان النبي يعرف هذه الوجوه جيداً. فالجميع ـ عدا سعد بن عبادة «رئيس الخزرج»، وابو سفيان ومعاوية ـ من السابقين المؤمنين بالإسلام في أوائل البعثة، حيث لم يكن هناك جزاء دنيوي للارتباط بمحمد والإيمان بالإسلام سوى التعذيب والموت والتبعيد.

لكن قيادة مجتمع جديد البناء، تهدده من الداخل والخارج مئات الأخطار، تستدعي ان يتحمل القائد مسؤوليتي القيادة السياسية والقيادة الفكرية لذلك المجتمع. ومثل ذلك المركز لا يمكن ان يملأه من يؤمن عقيدياً بنبوة محمد فقط. بل لا بد من رجل كمحمد يتمتع بخصوصية متميزة ويتوفر على استعدادات مختلفة في النواحي الإنسانية، الفردية والاجتماعية، المعنوية والسياسية.

اما بالنسبة لمعاوية وابي سفيان؛ فرغم كونهما يتميزان من بين جميع اولئك الرجال من ناحية القدرة الاجتماعية، الاّ ان سابقتهما في الجاهلية وعداءهما للإسلام يفوق اسلامهما بمراتب. فلا بد ان يمضي وقت طويل لكي تنسى الناس وقائع بدر وأُحد. ولكي ينسياهما ايضاً. من هنا فليس لهما نصيب ـ دون شك ـ في السلطة بعد وفاة النبي مباشرةً.

وابو بكر أحد ثلاثة رجال يتمتعون بنفوذ كبير بين الناس. . . سابقته في الإسلام، صداقته القريبة لمحمد، وقرابته له، وشخصيته الاجتماعية في الجاهلية ايضاً، كل ذلك عوامل تجعل الألسن تلهج باسمه. الاّ انه شيخ متعب، مضافاً الى انه متساهل يعوزه الحزم في كل عمل. ومسؤولية سياسية واجتماعية ملؤها الأخطار أكثر جدّية من ان تأتي منسجمة مع روحٍ من هذا القبيل.

وعمر رجل ـ على النقيض من ابي بكر ـ خشن متعصب وفي غاية الجدّية (وكما يقول الأوروبيون انه عنصر أصولي). لا يحيد

ولا يتسامح في تطبيق ما يراه عدلاً. وقد كان دخوله الإسلام عاملاً في تقوية أصحاب محمد القلائل في مكة.

وكلما انعطف الحديث حول الجزاء الذي سينزل بالعدو او الأعداء الذين وقعوا اسرى في أيدي المسلمين كان اقتراح ابي بكر تحريرهم والعطف عليهم، اما عمر فقد كان يردد مقولته المأثورة: «يا رسول الله، دعني اقطع رقبته!»

ومع ما كان عليه من لياقة تنفيذية عالية وجدية في مقام العمل، الاّ انه لم يتوفر على ملكة الإبداع والاستنباط. كانت روحه قوية، لكن فكره كان افقياً. فالرجل الذي دلّل على تمتعه بامكانية عالية في مجال العمل كان يبدو ضعيفاً جداً حينما تعرض مسألة عقيدية او مشكلة فكرية، وقد كان نفسه يعترف دائماً بأخطائه الفكرية.

ان قيادة الأمة الإسلامية وخصوصاً خلافة النبي ليست مسؤولية تنفيذية وسياسية فحسب. فالخليفة في الإسلام لا يمكن قياسه على رئيس الدولة[١]، في الحكومات ذات النظام الجمهوري اليوم. فهو في نفس الوقت الذي يعد رئيساً للحكومة يُعدُّ ايضاً مفكراً ايديولوجياً للحكم الذي أُقيم على أساس هذه الايديولوجية. من هنا فالسطحية وعدم العلم العميق بروح القرآن الكريم، بل حتى

---

(١) يعرف الملك أو رئيس الجمهورية اليوم بأنه رئيس البلد Etat، ورئيس الوزراء بانه رئيس الحكومة Gouvernement... حيث يتعهد الأول بالقيادة العامة ورسم السياسة الكلية للمجتمع، ويتعهد الثاني برئاسة القوة التنفيذية.

بنصِّه تبتعد بصاحبها كثيراً عن الأهلية لتحمل المسؤوليات الخطيرة، التي كان يتحملها محمد(١). فبغية استمرار نهج محمد وقيادة امته لا بد من النضج الفكري والمعرفة العميقة برسالته، كما لا بد من التقوى واللياقة التنفيذية على حدٍ سواء.

اما عثمان قريب محمد وصهره المضاعف، فهو رجل تبدو عليه علامات الصلاح والقدسية، الاّ انه على المستوى الفكري والعملي بلغ حداً انه لم يعثر أحد ـ طول حياته مع النبي ـ على عمل ممتاز له. انه رجل ارستقراطي؛ مسلم لا يستطيع ان يدرك عمق توجه الإسلام الطبقي. ولا يعرف الإسلام الاّ اداء «شعائر» والقيادة الاسلامية سوى «تعظيم للشعائر». وقد كان ارتباطه بعشيرته وذويه وثروته قوياً، وهو على هذا المستوى أقرب للروح الجاهلية منه الى الإسلام. وقد كان انتسابه الى «بني امية» الطائفة القوية والخطيرة خطراً كبيراً، وهو على ما هو عليه من رؤية وروح سوف لا يكون سوى اداة بيد اولئك الأعداء الأقوياء الماكرين، الذين كانوا يتسترون آنئذٍ تحت غطاء الإسلام.

وسعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج اسدى خدمات جليلة للاسلام، الاّ انه لم يكن شخصية فكرية وسياسية ممتازة. وقد كان ارتباطه بالقبيلة يحدد موقعه الاجتماعي بشكل أكبر مما تحدده قيم

---

(١) نظير ردّ فعله المدهش حين وفاة النبي الذي أبرزه الرجل، ونظير توصيته الغريبة بتحرير الأسرى العرب بحجة ان الله جعل الأعاجم عبيداً لنا ولا ينبغي استرقاق العرب. . . والخ. .

المجتمع الاسلامي. فهو يُقيَّم بوصفه زعيم قبيلة، نصر الاسلام بشهامة واخلاص وفداء. وكانت زعامته القبلية النقطة البارزة في شخصيته لدى جماهير المسلمين وكبار صحابة النبي. مضافاً الى ذلك كيف ستوافقه قريش، بل حتى قبيلة الخزرج على زعامته وقيادته للمسلمين بعد النبي؟ فهو لا يتوفر على تلك الخصائص التي يمكن بها لكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار القبول بامامته.

اما سعد بن ابي وقاص، فهو عنصر عسكري اكثر من كونه رجلاً سياسياً واجتماعياً ـ وخصوصاً ـ فكرياً ودينياً.

وعبد الرحمن بن عوف؛ رغم كونه من «السابقين» الاّ انه لا يزال حب المال والجاه مصاحباً له منذ الجاهلية. فالنفع والحق اختلطا في رؤيته اختلاطاً يصعب معه فرز أحدهما عن الآخر.

وفي وسط هذه الوجوه كانت لعلي لياقة خاصة... فهو الوحيد من بين مشاهير الصحابة ممن لا تربطه بالجاهلية رابطة، وهو رأس الجيل الذي ابتدأ حياته في الإسلام وتشكلت روحه في ثورة محمد. ومزية تربوية اخرى له هي: ان يد الفقر العطوف نقلته من بيته الى دار محمد في مرحلةٍ من عمره، حيث تبتدىء صياغة أبعاد الشخصية الإنسانية فكرياً وروحياً. انه لإتفاق عظيم ان يحتضن الفتى اليافع ـ مع وجود ابيه ـ ابن عمه؛ فتنشأ الروح التي تُعدُ لإنسان مثالي وتتربى في مدرسةٍ معلمها محمد وكتابها القرآن الكريم. فيتعرف منذ البدء على اول نداء ويرفض لوح الطفل

البسيط تقبل اي نقش من الجاهلية.

كان علي رجل السيف والكلام والسياسة، رقيق الأحاسيس رقة أحاسيس العارفين، محكم الفكر استحكام فكر الحكماء. كان تقياً عادلاً الى الحد الذي صيّره رجلاً لا يُطاق بين الأصحاب. والكل مجمعون على علمه الشامل العميق بالقرآن الكريم.

ان ظروف حياته الخاصة والاجتماعية والسياسية، وعلاقته بالنبي، وخصوصاً جبلته، كلها عوامل جعلته يقف عن قرب على روح الإسلام الحقيقي: المضمون الأعمق الذي تنطوي عليه الأحكام والعقائد والشعائر، الذي يبقى خفياً ـ غالباً ـ على ذوي العيون السطحية. فقد عُجنت أحاسيسه ورؤيته بهذه الروح، فأضحى ذا «وجدان اسلامي» وهو ـ اي الوجدان ـ أمرٌ آخر مضاف الى الاعتقاد بالاسلام.

لقد تألق عليٌ باستمرار، طوال ثلاثة وعشرين عاماً حيث تاريخ نهضة محمد في مجالي النفس والمجتمع. فعاش دائماً بين الأخطار ولم يتزعزع ايمانه مرةً واحدة، ولم يعتره أدنى ضعف. والعظيم في علي هي روحه المتعددة الأبعاد، الروح التي كان في كل أبعادها المختلفة، بل حتى المتناقضة، بطلاً. فهو بطل في الفكر والحرب والحب... انه رجل المحراب والناس، رجل الوحدة والسياسة، العدو اللدود لكل انحطاط تضيق به الانسانية على طول التاريخ، والتجسيد الحي لكل الآمال التي تحيا في قلب الإنسانية.

لكنه جليّ: ان مجتمعاً لا يفصله عن الجاهلية القبلية أكثر من عشر سنين يظل فيه صاحب هذه الروح وحيداً، غريباً ومجهولاً! وهذه حكاية من حكايات التاريخ المحزنة، بل ان حكاية مصير علي وأنصاره أكثرها حزناً وادعاها اسفاً؛ فلم يكن هناك فاصل بهذا الحجم بين رجل الأمة ومجتمعه على مدى التاريخ.

دون شك كان النبي يفكر كثيراً بشأن علي، فهناك قرائن كثيرة تشير الى ان النبي كان ينظر لعلي نظرةً خاصةً. لكنه كان يرى من زاوية اخرى ان رجال القوم سوف لا يعطون لهذا الشاب ذي الثلاثين عاماً ـ الذي ليس له من حامٍ الاّ محمد، وليس له من رأسمال الاّ التضحيات في الاسلام ـ ميداناً، وسوف لا يطيقون قيادته بيسر.

ان أقوى جناح سياسي في صدر الإسلام هو الجناح الذي تتألف نواته الرئيسة من «ابي بكر، عمر، ابو عبيدة، سعد بن ابي وقاص، عثمان، طلحة، والزبير».

يبدو لي هنا ان التذكير بما استخلصته مباشرةً من نصوص التاريخ أمر ضروري... رغم ان البحث عن الخلفيات الاجتماعية والطبقية للأحداث يعين المؤرخ على انارة الكثير من الغموض السياسي، الذي يلف أحداث هذه المرحلة.

ذكر ابن هشام في سيرته أسماء ومشخصات الأفراد الذين دخلوا الإسلام بعد البعثة، وزمان وظروف دخولهم.

ابو بكر اول شخص من خارج بيت محمد التحق بالإسلام[١]. ثم أدخل ابو بكر جماعة الى الاسلام انضمت لمحمد بشكل جماعي اثر دعوة ابي بكر. من هنا تتجلّى العلاقة الخاصة التي كانت تربط ابو بكر ـ أيام الجاهلية ـ بهذه الجماعة. وهم خمسة أفراد: عبد الرحمن بن عوف، عثمان، سعد بن ابي وقاص، طلحة، والزبير.

ثم نجد هؤلاء الخمسة في مكان آخر من التاريخ مجتمعين؛ أين، ومتى؟... بعد ستة وثلاثين عاماً، في شورى عمر، الشورى التي استبعدت علياً بأسلوب ماهر وذكي. الشورى التي رأسها عبد الرحمن بن عوف، وكان يتمتع فيها بحق النقض «الفيتو»، فاختار عثمان... فأعضاء شورى عمر عدا علياً هم هؤلاء الخمسة، دون زيادة او نقصان.

ابو بكر الشخصية البارزة في هذا التجمع الخفي، وقد دلل عمر على انضمامه لهذا التجمع من خلال اختيار هؤلاء الخمسة للشورى، ومن خلال الدور الذي لعبه في السقيفة. لقد كان هؤلاء معاً في كل موقع منذ السنة الأولى للبعثة حتى نصف قرن بعدها في واقعة الجمل.

ولقد لعبوا دوراً أساسياً في كل الميادين السياسية خلال هذه

---

(١) على أن هناك من يذهب الى أن جماعة أسلمت قبل أبي بكر، ولكن لم تكن لهم المكانة، التي تجعل التاريخ يسجلهم.

الفترة القلقة الحساسة، التي أعطت لتاريخ الإسلام وجهةً خاصة.

لقد وقف هذا الجناح السياسي القوي بوجه علي. فكان الخلفاء الثلاثة الأُول منه وقد أشعل اول حرب ضد علي «الزبير وطلحة» وهما أعضاء في هذا الجناح. كما ان الموقع المتميز الذي احتله سعد بن ابي وقاص ابان حكم عمر، والدور السلبي المعارض الذي مارسه في حكم علي دليل على ارتباطه بهذا الجناح.

فما نراه اليوم من خلال التاريخ كان النبي يراه ويفكر فيه بدون شك، وهو يودع الناس بمكة ويرى ان مستقبل امته ومصيرها في أيدي هؤلاء.

لقد كان علي مقابل هذا الجناح وحيداً تماماً، فالرجال الذين يؤمنون به هم: ابو ذر، سلمان، وعمار و... ليس لهم ارتباط سياسي خفي كارتباط أعضاء هذا الجناح، ويدلل على ذلك غيابهم جميعاً عن السقيفة.

لقد كانت مسؤولية النبي ـ ذلك الحين ـ خطيرة ودقيقة جداً. فالاعلان عن علي: بوصفه أكبر شخصية مؤهلة لقيادة الأمة سيعرض الوحدة التي تآلفت عليها القبائل العربية والمجتمع البدوي الى هزّة، وهذه الوحدة هي الضمان الوحيد لبقاء هذه الأمة الفتية.

ثم ان محمّداً لو سكت بشأن علي، فهل انه لم يضحّ بالحقيقة من أجل المصلحة؟

أوليس الضعف الاجتماعي الذي يعاني منه علي ناشئاً من قوته الدينية؟ والم تكن وحدته السياسية ناتجة عن حزمه وخشونته في طريق محمد؟ او كان سيفه البتّار الذي أثكل فيه كل قبيلة يهوي على الرؤوس بأمر غير محمد، ولأجل من سوى الله؟ وهل من سبب سوى ما قاله النبي قبل أيام في مكة: «انه لأخشن في ذات الله» او في سبيل الله «من ان يشكى» للأحقاد التي دفنتها القلوب على علي؟

ان سكوت محمد بشأن علي سيتركه بلا محام في التاريخ؛ فمن المقطوع به ان الظروف السياسية للمجتمع، وتركيبه الطبقي والعشائري، والتحالفات المصلحية فيه سوف لا تحرم علياً فحسب، بل ستشوه صورته، وستسيء لسمعته في التاريخ اساءة بحيث يضحى سبه لدى أطهر المسلمين، قربة لله ومحمد.

أولم يحصل ذلك؟ هل ان محمداً سوف لا يدافع عن علي الذي لا مدافع عنه سواه؟ او ليس سكوته بصدده يعني انه سيضيعه بيد التاريخ؟

اتخذ النبي قراره بعد ان ابتعدوا عشرة أميال عن مكة، حيث «غدير خُم» مفرق الطرق المؤدية الى المدينة وتهامة ونجد واليمن وحضرموت. المكان الذي يفترق فيه المسلمون جماعات تسلك كل جماعة طريقها، ثم لا يسمعون لمحمد حديثاً.

توقف النبي في «غدير خم» وأمر من تقدم ان يعود، ثم انتظر التحاق من تأخر... أقاموا له منبراً من أحجار جمعوها واقتاب

الجِمال، ثم قام خطيباً فيهم؛ فقدَّم علياً من خلال سياق دقيق وقاطع: فتساءل عمّن هو اولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فأجابوه: ان الله ورسوله أعلم؛ فقال لهم: ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم؛ قالوا: بلى. فقال: **من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه ـ اللّهم والِ من والاهُ وعادِ من عاداهُ وانصر من نصرهُ واخذُل من خذلهُ**. ثم قرأ على الناس بعد ذلك الآية المباركة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

عاد محمد الى المدينة، وقد امتد ظل سلطانه الى سائر أرجاء شبه الجزيرة، الاّ ان حدوده الشمالية ليست آمنة؛ اذ الامبراطورية الرومانية عدو مقتدر وخطير. فالروم أكثر من الايرانيين «الذين يحدّون الأرض الإسلامية من الشرق» خوفاً من قوة محمد. إضافةً الى العوامل السياسية، هناك حساسية دينية خاصة لدى المسيحيين ازاء الإسلام... من هنا تبقى الحدود الشماليّة غير آمنة باستمرار. وقد حاول محمد مرات متعددة ان يقاتل الروم وعملاءهم الداخليين من القبائل العربية في الشمال بما تيسر له من وسائل. وكانت آخر مرة غزوة «مؤتة» الدامية؛ حيث قتل فيها عبد الله بن رواحة وجعفر بن ابي طالب وزيد بن حارثة. وانتهت بانسحاب الثلاثة آلاف مقاتل مسلم ـ بقيادة خالد بن الوليد وتكتيكه العسكري ـ أمام مائتي الف مقاتل من العرب والروم... وقد كان انسحاب هذا الجيش دافعاً لجرأة الرومان على الاسلام، فسعى النبي ان

(١) سورة المائدة/ ٣.

يوجه لهم ضربة قاصمة قبل وفاته، فيغسل من الأذهان ذكرى «مؤتة» ولكي يبقى الإسلام بعده منيعاً من أخطار الشمال.

عبّأ النبي جيشاً كبيراً، وعهد بقيادته لشاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً هو: اسامة بن زيد بن حارثة.

فأوصى قائد جيشه المتوجه لقتال الامبراطورية الرومانية: ان يسير لهم من صوب مؤتة «حيث قتل ابوه»، وان يغير عليهم فجراً عبر منطقتي بلقا وداروم (فلسطين)، ويسرع السير فيباغتهم، وان ظفر بهم يُقلَّ اللبث عندهم!

عسكر «اسامة» في الجرف قرب المدينة حتى يتم تجهيز جيشه. وكان النبي يشدد على تعبئة هذا الجيش، فقد كانت مهمته خطيرة. وكان الصحابة الكبار كأبي بكر وعمر جنوداً في الجيش الذي يقوده اسامة ابن الثامنة عشر عاماً... وقد كان الأمر ثقيلاً عليهم، الاّ ان النبي كان مُصرّاً بشدّة. اعترضوا بصراحة على قيادة اسامة: «أمَّرَ غلاماً حَدَثاً على جِلَّة المهاجرين والأنصار!» وكان يبدو في الأفق ان هناك اعاقة لحركة الجيش من الجرف. فغضب النبي غضباً شديداً... فالأخطار التي ستهجم، بدت منذ الآن، وهي تشحذ أسنانها.

لم ينم النبي ليلته، وأحس ان الموت يقترب بخطاه نحوه، وكان يرى بوضوح رياح الأحداث السود تقترب على عجل... انتصف الليل، وكان صمت تلك الليلة مخيفاً بشدة. وأخذ الهم والقلق يضغطان بشدة على الروح القوية التي لم تضطرب قط طيلة

حياته المليئة بالمخاطرات.

لا يقرّ به المقام. . . فاستدعى مولاه «ابو مُويْهبة» للخروج من الدار. وكانت ليلة من ليالي الصيف الهادئة، في أواخر صفر او أوائل ربيع الأول. وقد كانت النسائم الوادعة المعبرة تثير خواطر مرة، وتزيد الخيال اضطراباً.

قال لغلامه: يا ابا مُويهبة اني قد أُمرت ان استغفر لأهل البقيع فاخرج معي الليلة؛ فخرجا في جوف الليل ومقبرة البقيع صامتة.

وقف على القبور وهو يعلم انه سيلحق قريباً بأصحابها. . . فيلقي نظرة عاجلة ويبدأ بخطابه، والقبور تصغي بهدوء!:

«السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. . .».

ثم يسكت ويلتفت الى رفيقه ويقول: «يا ابا مويهبة اني قد اوتيت مفاتح خزائن الدنيا والخُلد فيها ثم الجنة وخُيِّرتُ بين ذلك ولقاء ربي والجنة، فاخترتُ لقاء ربي والجنة». . . فاشتد قلق ابي مويهبة، وأحس بقرب الفراق؛ فخاطب النبي بلحن يقطعه البكاء وقال: بأبي انت وامي فخُذ مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. . . فقال النبي: «لا والله يا ابا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي» ثم استغفر لأهل البقيع ورجع.

اشتدّ عليه الصداع، وأخذ المرض والهمّ يضغطان على روحه بشدة، دخل بيت عائشة، وكانت عائشة تجد صداعاً في رأسها ايضاً وتئنّ قائلة: «وارأساه، وارأساه» وقد كان النبي يلقي متاعبه الكثيرة خارج الدار، ويدخل على نسائه مستبشراً، الاّ انه هذه المرة قال لعائشة: «بل انا والله يا عائشة وارأساه، ما ضرّك لو مُتِّ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصلّيت عليك ودفنتك؟» فأجابته عائشة على عجل: «لكأني بك لو فعلت ذلك رجعت الى بيتي فأعرست ببعض نسائك». فتبسم النبي وهو يمزح... الاّ ان الوجع اشتدّ عليه، ثم هدأ وجعه بعد عدة ساعات، فأخذ يزور نساءه ويحدثهن، وكأنه حديث الوداع، ومرة اخرى اشتدّ عليه الوجع في بيت ميمونة، فدعا نساءه، واستأذنهن ان يمرض في بيت عائشة، فأذنَّ له. فخرج النبي عاصباً رأسه، يتكيء على العباس بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب[1] ورجلاه يخطّان في الأرض، ثم دخل بيت عائشة.

أخذ الوجع بالاشتداد، وحرارة الحمى بلغت به حداً، كأنه يتحرق بنيران. لِمَ لَم يتحرك الجيش حتى الآن؟ كان يعلم السبب، يدري ان كبار رجال القوم لا يبتعدون عن المدينة في مثل هذه الأيام.

---

(١) ناقلة الرواية عائشة ذكرت العباس ورجلاً آخر، ولم تسمه، ويقول عبد الله بن العباس: إنه علي بن أبي طالب، لكنها «أي عائشة» لا تقدر على ان تذكره بخير. راجع تاريخ الطبري ج٢، ص ٤٣٣، وسيرة ابن هشام، ج٢ ص٩.

ثم طلب أن يفرغوا عليه ماءً من سبع قِربٍ من آبار شتى، حتى يخرج الى الناس فيعهد إليهم. . . فأقعدوه في إناء لحفصة بنت عمر «زوجة النبي»، ثم صبّوا عليه الماء، الى أن قال: حسبكم حسبكم. . .

بعد ذلك دخل المسجد بطلعة نالت منها الحمى ورأس معصوب. . . فقال للفضل بن العباس: خُذْ بيدي يا فضل. فأعانه الفضل حتى جلس على المنبر، ثم بدأ خطابه بعد ان التفّ حوله الناس؛ وبعد ان حمد الله وأثنى عليه، ابتدأ بالصلاة على أصحاب أُحد واستغفر لهم، وأكثر بالصلاة عليهم وتحيتهم، ثم قال:

«ان عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» ثم سكت. اما الناس فقد طأطأوا الرؤوس، لكن أبا بكر أدرك مقصوده فبكى وقال وهو يحدق النظر في محيا النبي: «فديناك بآبائنا وأمهاتنا»، فقال النبي: «على رسلك يا أبا بكر». . . فاهتز المسجد هيجاناً، وأثقل الحزن والحسرة الأرواح، حتى خمدت. ثم مضى النبي في خطابه:

«أيها الناس، انفذوا جيش أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته. لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها».

وفي تلك الحالة عاد فالتفت الى أخطارٍ أخذت تهدد الأُمة وقال: «إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم ان في عضد سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنفختهم، فطارا، فأوّلهما هذين الكذّابين

صاحب اليمامة، وصاحب اليمن».

ثم سكت مرةً أخرى، ولهيب الحمى يزداد اشتعالاً . . . تفتت النشاط القليل، الذي استعاده بعد ان صبّوا عليه الماء وأعانه في المجيء الى المسجد، فثقل مرضه، وبدا مُتعباً بشدة، لاحظ الناس ان النبي يسعى بكامل جهده ليتحدث لهم مرةً أخرى، لكنه لم يستطع . . . أخذ يتلوّى بشدة، والألم يعتصره. وهذه آخر فرصة للحديث مع الناس، وعليه أن يودع المسجد والأصحاب، فلم تبق فرصة وكل شيء قد انتهى وأوشكت قصته مع الناس على الانتهاء. وعليه ان يودع الناس وينزل عن المنبر الى الأبد. والموت ينتظره في بيت عائشة، لكن يبدو ان للرجل حديثاً مع الناس في آخر لحظات حياته، يجب ان يفصح به، فجمع كل ما تبقى لديه من قوة لكي يقدر على الكلام.

شعر الناس أن النبي يسعى سعياً يدعو للإشفاق؛ بغية أن يقول آخر نداء. بل ان المنافقين قد تأثروا بشدة لهذا المشهد المثير أيضاً.

وضع الناس رؤوسهم في حجورهم وهم يقولون لأنفسهم: ان الألم أكبر من ان نئنّ له.

ابتدأ محمد، وأخذت الكلمات المتعبة تخرج بعسر من فمِ أيبسته حرارة الحمى.

ولا يتكلم انسان في مثل هذا الألم والصعوبة على الإطلاق،

لكن محمداً يجب ان يتكلم. . . فقد كان لديه استفهام من الناس. ما لم يطرحه لا يهدأ له بال:

«ايها الناس إني أحمد اليكم الله لقد دنا مني خفوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يقل رجل اني أخاف الشحناء من رسول الله، ألا وان الشحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، الا وان أحبكم اليّ من أخذ مني حقاً ان كان له، أو حلّلني فلقيت الله، وأنا طّيب النفس، وقد أراني أن هذا غير مغنٍ عني حتى أقوم فيكم مراراً».

نزل عن المنبر، وأقام صلاة الظهر. . . أثقلته الحمى والألم والإرهاق وحرارة شمس الظهيرة.

بدت ملامح الموت واضحةً على محياه. ولكن يبدو أنه لم يُتم مهمته مع الناس. فما ناشد به الناس لم يكن تشريفات شكلية، بل كانت مناشدة جدّية، حيث لم يمنعه الإحتضار منها.

نهض والجموع حوله مشدوهة، وهي ترى نبيها في أحرج حالاته، فأعانه بعضهم على النهوض، لكنه لم يعد الى الدار، بل جلس ثانيةً على المنبر، وكرر خطابه بلحن أشد تأكيداً هذه المرة، ثم سكت. . . وكان ينتظر، وهو يحدق في الناس بعينين مرهقتين محمومتين، شعر الناس بضرورة الإجابة، ولكن ماذا يجيبونه؟! فهو الذي أوقف كل حياته على الناس وصيّر هؤلاء البدو المغفلين أهل مدنية وصولة وفخر. وهو الذي أنفق ثروة خديجة الكبيرة في

سبيل الناس. ولم تكن حياته على شكل يهضم فيه حقاً أو يبيح ظلماً. وهو نموذج المسلم الأكمل، المسلم الذي رسم الله صورته في كلمتين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١).

وهو الذي لم يُؤذِ أحداً طول حياته أبداً؛ وحتى في تلك الحادثة التي كان فيها أحد البدو يسير براحلته بشكل متلاحق مع راحلة النبي مما أدى الى إصابة رجل النبي إثر ذلك، انزعج النبي قليلاً وضربه بسوط كان يحمله وقال له بغضب: ابتعد عني قليلاً! إلا أنه بعد أن عاد الى المدينة استدعى ذلك الأعرابي واعتذر منه كثيراً وألزم نفسه تقديم ثمانين رأساً من المعز كفدية على ذلك السوط... وهو الآن لا يتذكر انه قد أذى احداً من الناس او أنه مطلوب لأحدهم، إلا أنه يخشى أن يكون قد تصرف خلال حياته المليئة بالأحداث مع شخص ما بشكل لا إرادي بحيث أزعج الآخرين وهو لا يعلم بذلك؛ لذا فهو طالبهم بالاقتصاص منه إن بدر منه أي سلوك من هذا القبيل.

انتظر محمد، والناس خجلى، فلم تطق عين أن ترى مثل هذا الانتظار المحيّر في تلك الطلعة، طأطأوا الرؤوس واقشعرّت الأبدان... ان السؤال الذي طرحه محمد ثقيل جداً.

قام أعرابي وقال: يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم... لم يتحمل البعض الموقف فبكوا، وفوراً قال محمد: أعطه يا

---

(١) سورة الفتح/ ٢٩ .

فضل . . . فأعطاه الفضل بن العباس ، وجلس الأعرابي .

خيّم على المسجد صمت ثقيل ومؤلم . . . أدرك النبي اضطراب الناس الشديد لسلوك هذا الأعرابي الذي أحرج النبي بين الناس .

فقال : «ايها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فُضُوح ؛ الا وان فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة» . فقام أعرابي آخر وقال : «يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله» . فقال له النبي : «ولم غللتها؟» فقال : كنت اليها محتاجاً . فقال النبي : «خذها منه يا فضل» .

ثم نهض رجل ووضع عينه بعين النبي ، وهو يضطرب وقال : لقد ضربتني سوطاً على بطني يا رسول الله في الواقعة . . . !

سكت المسجد فجأةً ، وكادت القلوب تنقطع حزناً وغماً ، اندهش الجميع ، ولم يتجرأ أحد أن يرفع رأسه . . . أمّا النبي فبوجه هادىء ، رفع ثوبه ، الذي بلّه العرق ، حيث كشف بطنه الى أعلى صدره ، وطلب من الرجل أن يقتص منه! فتقدم الرجل نحو النبي ، والناس يطأطأون برؤوسهم دهشةً . لحظات مؤلمة ، وفجأةً يهزُّ فضاء المسجد ضجيج أليم . فرفع الناس رؤوسهم ، وهجم الرجل على بطنه هجوم المجانين ، وبدل القصاص قبّل بطنه قُبلة الوالهين . فهطلت أمواج الدموع ، فوجد الناس أنفسهم بعد خجلٍ مرفوعي الرأس أمام النبي . امتلأ فوراً فضاء المسجد شوقاً وعشقاً ، فغابت تلك الخاطرة المخجلة ، فرح الناس : ان أثبتوا للنبي انهم يعرفونه

جيداً، والنبي الذي يحب شعبه طرح في تلك الأثناء ـ حيث لم تبق أمامه فرصة ليثبت من جديد حبه وتعلقه الطاهر بمستقبل إخوانه ـ اقتراحاً مثيراً. . . فالعين تذرف دموع الفرح والحب عندما تتعرف على أعماق جمال روح جميلة:

«ايها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقُم ادعُ له».

أثار هذا الخطاب وثبةً وأملاً في محيط المسجد المخنوق حزناً. وبرزت روح الإيمان القوي والإخلاص والصراحة التي لم تشهد العرب سابقة لها، وأماط الأمل اللثام عن الوجوه.

فقام رجل وقال: يا رسول الله، انّي لكذاب، اني لفاحش، اني لنؤوم. فدعا له النبي: «اللّهم ارزقه صدقاً وايماناً واذهب عنه النوم اذا أراد». وقام آخر وقال: يا رسول الله اني لكذاب، واني لمنافق، وما شيء الاّ وقد جنيته. فقام عمر بن الخطاب وقال للرجل: فضحت نفسك أيها الرجل. فقال النبي لعمر بلغة عتاب: «يا بن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللّهم ارزقه صدقاً، وإيماناً، وصيِّر أمره الى خير. . .».

نزل النبي عن المنبر وعزم على ترك المسجد، وفجأة يقف ويتوجه للناس: «أما بعد يا معشر المهاجرين انكم قد أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، والأنصار عيبتي التي آويت إليها فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». ولم يبق له بعد ذلك رمق، فترك المسجد والناس، وذهب الى بيت عائشة، وألقى نفسه على الفراش، واشتدّ عليه

مرضه، وكان يغمى عليه حيناً ويفيق حيناً آخر.

وحينما ابتدأ الموت بحملاته، عكف النبي فوراً على التفكير: أي شيء ادخرت؟ فأمر عائشة ان تأتي له بكل ما يملك من مال فتقسمه بين الفقراء. وبينا هو كذلك أُغمي عليه، فاضطربت عائشة، ولم تعبأ بوصيته.

ثم أفاق من إغمائه، فاستفسر من عائشة عمّا فعلت، فعرف أنها لم تنفذ أمره فتأثر بشدة، وأجبرها على إخراج كل ما لديه من البيت في تلك اللحظة. وكان كل ما لديه سبعة دنانير؛ فأخرجوها، ووزعوها على ذوي العوز. وإذا بهم يرون النبي وقد انبسطت أساريره، وكأن حملاً ثقيلاً قد أُزيل عن عاتقه.

صنعت أسماء «وهي امرأة من ذوي ميمونة زوجة النبي» دواءً للنبي قد أتقنت صنعه وتعلمته حينما كانت في الحبشة مهاجرةً. وبينما كان النبي مغمىً عليه ألقوا الدواء في فمه. وبعد ان أفاق وعرف ان النساء أطعمنه الدواء دون إذنه، غضب غضباً شديداً، واستفسر، فألقى الجميع المسؤولية على عاتق العباس. فأوضح العباس له: اننا خفنا ان يكون مرضك ذات الجنب، فأغضبه هذا الإيضاح أكثر، ولأجل توبيخهم أمر بأن يأخذ كل من حضر المجلس من هذا الدواء إلاّ العباس، وقد كانت ميمونة صائمة، لكن النبي لم يستثنها.

دخل بلال ودعا النبي الى الصلاة. ولم يكن النبي قادراً على الحركة. فقال: مروا من يصلي بالناس.

وأخذت الحمى والألم يشتدان عليه لحظة بعد أخرى . . . ثم طلب ان يجتمع الأصحاب ليودعهم، فيلقي نظرة على أصحابه الأوفياء، وللوهلة الأولى وما ان نظر الى من قضى معهم عمراً مليئاً بالأحداث حتى دمعت عيناه وبلحن يعكس حبه العميق لأصحابه قال: «مرحباً بكم، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، نصركم الله، سلمكم الله، رحمكم الله، قبلكم الله، اوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم واستخلفه عليكم وأوديكم اليه. اني لكم نذير وبشير: لا تعلو على الله في عباده وبلاده فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

سكت لحظة، فذهب يفكر، وكأنه يردد على نفسه ما يدور في خلده، ثم قال: «أليس في جهنّم مثوىً للمتكبّرينَ». فقالوا له: متى أجلك؟ فقال: «قد دنا الفراق والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى». قالوا له: من يغسلك يا نبي الله؟ قال: «أهلي الأدنى فالأدنى». قالوا: ففيم نكفنك يا نبي الله؟ قال: «في ثيابي هذه ان شئتم أو في بياض مصر أو حلة يمانية». قالوا: فمن يصلي عليك يا نبي الله؟ قال: «مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً». . . فبكى الأصحاب وبكى معهم النبي. ثم قال: «إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عنّي ساعة. . . ولا تؤذونني بتزكية ولا برنّة ولا صيحة،

---

(١) سورة القصص/ ٨٣.

وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد. اقرأوا أنفسكم مني السلام فإني أشهدكم اني قد سلّمت على من بايعني على ديني من اليوم الى يوم القيامة».

قالوا: فمن يُدخلك في قبرك يا نبي الله؟ قال: «أهلي».

ثم سكت النبي، وسكت الأصحاب، وخيّم على الحجرة غمّ شديد... فالفراق قريب.

وفجأة ترتسم على محيا النبي ملامح جديدة من المعاناة. شدّ عينيه المضطربتين المثقلتين بالحمى الى وجوه الأصحاب واحداً واحداً... الرجال الذين سيمسكون عاجلاً بمصير الأمة والإسلام. فالحكاية منذ الغد حكاية هؤلاء... وكأنه يريد ان يقول شيئاً، فغرق في تفكير عميق مهموم؛ فمستقبل أمته يؤرقه ويؤلمه أشدّ من ألم الاحتضار، وقطرات الدموع تزين محياه وكأنه اصطدم بحيرة مؤلمة. وإذا به يبدو وكأنه قد اتخذ القرار، خاطب الأصحاب: «ائتوني باللوح والدواة» أو بالكتف والدواة «اكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده أبداً».

فارتفعت الضوضاء فجأة، وتنازعت الأطراف، وأثار مدبرو سياسة الغد ضجّة، فانزعج النبي وتألم بشدة؛ فما كان يغرق في التفكير به من حائل أمام قول السرّ الذي لم يسمحوا له بقوله، رغم أنه لم يكن خفياً على أحد... أضحى مصحراً واضحاً، وأدرك النبي انه لا يستطيع اليوم ان يفعل ما يحول دون ما سيقع في الغد. لم يستطع أن يتحمّل هذا التنازع القبيح في آخر لحظات حياته...

أما وجوه القوم ففي نفس الوقت الذي كانوا يمنعون من جلب الكتف والدواة كانوا يكررون الاستفهام على النبي: عمّا يريد ان يكتب؟ فواجههم بغضب وحزن وقال: «**لا ينبغي عند نبيّ ان يتنازع**»، فألحّوا عليه بالسؤال، فأجاب: «**أوصي بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم**، . . .» والثالث؟

صمت، وامتد ظل كثيف من الألم الكبير على طلعته المحمومة المتعبة. . . وغرق في تفكير عميق، ونظراته، وهي تضطرب بغمٍ كبير، تنشدّ الى موقع بعيد في خياله، ولم يقل شيئاً.

أخذت اللحظات الصامتة تتتابع، وتنصرم. . . والأصحاب لم يقولوا شيئاً أيضاً. كأنه ليس هناك أحد في ذلك الجمع لم يدرك معنى هذا الصمت الحزين. أدرك الحاضرون أن النبي سوف لن يقول شيئاً، وسوف لا يكسر صمته بشيء آخر بعد وصاياه الثلاث. فقد كان يريد أن يكون آخر نداء للناس خطاباً لا يستطيع الإفصاح عنه اليوم، ولكن يجب أن يصغي المستقبل والتاريخ لهذا النداء الصامت؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لم يقل: أوصي بثلاث!

ومضى النبي ساكتاً ونظراته المضطربة حزناً مشدودة الى زاوية. . . فأدرك الحاضرون أن الانتظار لا ثمرة له، فمضوا دون أي خطاب.

وبعدُ، فقد انتهى كل شيء.

الآلام القاتلة التي انصبّت عليه زادت ألم مرضه، فأُغمي عليه. وفاطمة «ابنته، زوجة علي» أول ضحايا الغد، كانت جنب وسادته، وهي تبكي بحسرة وألم، وقد شدّت عينيها ـ المغرورقتين بالدموع والحب والحسرة والخوف ـ الى محيّا الأب الخافت، وقالت:

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمَالُ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ[١]

فتح النبي عينيه، وطلب من ابنته أن لا تقرأ شعراً، بل تقرأ القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا. . .﴾[٢].

اومأ النبي الى فاطمة، فأدنت رأسها من وجه أبيها، ثم رفعته يعلوه الحزن. لكن الأب العطوف لم يصبر على حزن ابنته الوحيدة التي يخصها بحب شديد، فأشار إليها ثانيةً فدنت برأسها من وجه أبيها، ثم رفعته، وكانت الابتسامة المليئة بالرضا والأمل تضيء وجهها الذي أغرقته الدموع.

سألتها عائشة عمّا قال لها، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله. فلما توفي رسول الله سألتها، فقالت: أما الآن فنعم؛ لقد أخبرني أولاً باقتراب أجله وأوصاني بتقوى الله والصبر،

---

(١) الشعر لأبي طالب في مدح النبي. . .

(٢) سورة آل عمران/ ١٤٤ .

فبكيت. وفي المرة الثانية قال لي: أنتِ اول أهلي لحوقاً بي، فاستبشرت.

كانت تلك الليلة أكثر هدوءاً مما قبلها... صباح يوم الإثنين في آخر لحظات الحياة انبعث في النبي نشاط، نهض به من الفراش، وقام حتى باب بيت عائشة رفع الستار بنفسه وكانت الناس تصلي مع ابي بكر(١). وفجأة وجدوا النبي يقف على الباب ويرقبهم بابتسامة وادعة حنون تعلو شفتيه. لقد كان النبي مسروراً جداً، وهو يرى المسجد والناس ـ خلافاً لتوقعه ـ مرةً أخرى، ويجد المسلمين قد حفظوا وحدتهم وعظمتهم في غيابه.

يقول أنس بن مالك: «ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه تلك الساعة». دخل النبي الى المسجد... فرأته الناس يخطو بقدميه ويرد المسجد مستبشراً فهاجوا فرحاً به، وكادت صفوف المصلّين ان ترتبك. فأشار لهم بيده أن يثبتوا على صلاتهم. وبعد أن انتهت الصلاة، انتهز آخر فرصة، ليتحدث عمّا يؤرقه بشدة؛ فقال: «أيها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله لا تمسكون عليّ شيئاً، إني لم أُحلّ لكم إلاّ ما أَحلَّ لكم القرآن ولم أُحرِّم عليكم إلاّ ما حَرَّم عليكم القرآن».

ثم قال: «لعن الله الّذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

---

(١) يقول المؤرخون الشيعة: أمر النبي أولاً: «بأن يصلي أحدٌ بدلاً عنه في الناس» دخل أبو بكر المحراب، ألا أن النبي وصل الى المسجد في اللحظة الأخيرة ودخل المحراب وصلى بالناس ـ (الإرشاد للشيخ المفيد).

فقال ابو بكر: «يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب واليوم يوم ابنة خارجة فآتيها». فترك رسول الله المسجد إلى الأبد واضطجع على فراش الموت، ولم ينهض بعد ذلك، وخرج أبو بكر من المدينة ذاهباً لزوجته بالسُّنَخ.

حلّت لحظات الإحتضار، ومحمد لا يستطيع بعد ذلك أن يتكلم شيئاً. نشط الموت، وهو يبتعد بضعة أقدام عن بيت عائشة، أُغلقت الشفتان اللتان جاءتا للانسانية بآخر نداء الغيب... انها لحظات لفظ الأنفاس... وضع عليٌ رأس محمد على صدره. كان هناك قدح فيه ماء الى جانب محمد، وكلما أفاق بعض الشيء وضع يده فيه ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: «اللّهمم اعنّي على سكرات الموت». وفي ذلك اليوم دخل رجل من آل أبي بكر، فتح النبي عينه فوجد مسواكاً بيده، والنظافة جزء من إيمان محمد، لم يستطع ان يتكلم، أشار، فهمت عائشة أنه يريد المسواك، فأخذت عائشة المسواك ومضغته حتى لان، ثم أعطته لمحمد، فمسح به أسنانه خمس مرات بعد جهد كبير، وعائشة تقول: استنّ به كأشد ما رأيته يستنُّ بمسواك قبله.

كان الناس متجمهرين في صحن المسجد وحول أطرافه، وغطت المدينة بصمت مظلم حزين، وكانت السماء تمطر غمّاً.

أما الجيش الذي سعى النبي آخر أيامه لتعبئته فقد رجع من الجرف، ودخل المدينة. وإذا بقائد الجيش الشاب يخترق الصفوف مضطرباً قَلِقاً، يتوجه لبيت محمد. وحينما رأى الناس «أسامة»

عائداً ارتفعت أصواتهم بالبكاء. . . أجل؛ فمحمد لا يستطيع أن يصدر أمراً. دخل أسامة الدار وجلس الى جانب سرير أبيه الكبير. فتح محمد عينه. فرأى أسامة، لكنه لم يستطع أن يتكلم، فرفع يديه الى السماء، وحدّق لحظةً، ثم وضع يديه على رأس أسامة، وأسامة يرتعش من شدة الألم. لحظات ويدا محمد الحنونتان على رأس أسامة، ثم هبطتا. . . نهض أسامة خارجاً على عجل.

نهضت النساء، وتقدمن يحدقن في وجه محمد، نعم! نعم! عائشة تحنو على النبي، وتنتظر. . . أما فاطمة فتتّكىءُ على بُعد من النساء على حائط، وتجالد، لكي لا ترى. كان الصمت موجعاً يقضُّ المضاجع، وإذا شفتي محمد تتحركان: إلى الرفيق الأعلى! توفي النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. .

الفهرس